BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

دور الإسكندرية في حركة الاستنارة المصرية والعربية

جابر عصفور:

يزيدني سعادة اليوم هو أن الموضوع الذي نتحدث فيه عن الإسكندرية، وأنا شخصيًّا أنتسب إلى الإسكندرية بحكم الجينات، فوالدي من الإسكندرية، وثانيًا لسبب موضوعي جدًّا وهو أن الإسكندرية هي المدينة التي قادت الاستنارة في مصر، فإذا تحدثنا عن حركة تحرير المرأة نجدها بدأت في الإسكندرية، وأنا أذكر أن المجلة النسائية الأولى في مصر صدرت في الإسكندرية وكانت مجلة "الفتاة" لهند نوفل، وهناك – إلى جانب أول مجلة نسائية – الصحافة التي ازدهرت في مدينة الإسكندرية، ثم انتقلت من الإسكندرية إلى القاهرة، وهناك عشرات الأمثلة إذا أحصيناها لن نتوقف وسوف نأخذ وقتًا طويلاً فقد كانت – وأرجو أن تزال – مدينة الاستنارة بحق، وهذا هو الموضوع الذي سوف يتحدث عنه المتحدثان اليوم، وسوف نبدأ بالدكتورة لطيفة سالم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة بنها، والتي سوف تتحدث عن الخاص لكي تنـــتقل الحركة إلى زميلها الدكتور أحمد زكريا الشّلق الذي سوف يتحدث عن العام، فسوف تتحدث الدكتورة لطيفة سالم عن الصحافة في الإسكندرية، وبعد ذلك سيتحدث الدكتور أحمد زكريا الشّلق عن حركة التنوير بشكل عام.

لطيفة سالم:

أنا لست وافدة من القاهرة، فقد تخرجت في جامعة الإسكندرية، والإسكندرية تجري في عروقي وأنا أفتخر دومًا بترديد أنني "إسكندرانية"، وليس هذا من قبيل التحيز، وإنما لأن الإسكندرية على مر العصور كانت مِشعلاً للحضارة. وسوف أتحدث في تخصصي عن الجذور التي جعلت الإسكندرية تحمل الحضارة في العصر الحديث، وقد ركزت حديثي على الصحافة واخترت فترة زمنية اجتمعت فيها الجذور مع النبتة الأولى، وعندما يحدث هذا يستمر التيار قويًّا، وقد اخترت فترة الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ووضعت نقطة معينة وهي تأسيس صحيفة

الأهرام التي تم تأسيسها في الإسكندرية، وانتهيت عند الفترة التي انتقلت فيها صحيفة الأهرام من الإسكندرية إلى القاهرة والعوامل التي أدت إلى ذلك.

مما لا شك فيه أن الدور الذي أدَّته الإسكندرية في حركة الاستنارة كان دورًا بارزًا بعد أن سجَّله التاريخ بحروف مشرقة عبر صفحاته، وقد تناغمت آلياته المتعدِّدة لتعزف لنا في النهاية سيمفونية لها طابعها الخاص، ولما كانت الأدوات كثيرة وقع اختيارنا على إحداها لتكون نموذجًا معبرًا عما نسعى إلى توضيحه ويتمثَّل في الصحافة. فهي الدليل على رقي الأمم وتقدُّمها والمقياس الحقيقي لدرجة مدنيتها، وهي اللغة المشتركة بين الأطراف ولها الارتباط الوثيق بحريات وأفكار الشعوب، وهي بحق صاحبة الجلالة والسلطة الرابعة التي لها كيانها الخاص، ففي رحابها الآراء المختلفة، وفي محرابها نبض وإيقاع المجتمع. وما سأركز عليه هو انعكاسات حركة التنوير على الصحافة، وكيف استقبلت الصحافة هذه الحركة وكيف قامت بتجسيدها وكيف جعلتها في متناول أيدي الناس. ولما كانت تلك الأداة الإعلامية تشغل المساحة الزمنية العريضة، كان لابد لنا من التركيز على حقبة اتسمت بالازدهار، وبالطبع كثيرًا ما يكون ذلك في بداية تألقها في فتراتها الزمنية التي مثَّلت قاعدة راسخة في ثقافة الإسكندرية.

ومن المعروف أن الإسكندرية نهضت من جديد على يد محمد علي في الفترة من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، الذي جعل لها الموقع المهم على خريطته التحديثية، وبالفعل أثمر ذلك عن نقلة حضارية لها سرعان ما تعددت روافدها مع تحديث آخر أدخله الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) على مصر. فقد حدث أنه نتيجة عصر الانفتاح الذي صحبه تغيير اقتصادي أن تدفَّقت رؤوس الأموال الأجنبية واستحوذت على المشروعات المختلفة وخاصة البنوك وأصبح للقطن المكانة العالمية، وتطلب ذلك توظيف العمران بما يخدم النهج الاقتصادي، وعليه تأسست الخدمات التقنية الخاصة بالمياه والكهرباء والاتصالات بأنواعها، وأضفت المدنية المستوردة الطباع الجديد الذي بدا ملحوظًا تمامًا على الإسكندرية التي غدت العاصمة المالية والتجارية لمصر.

وصحب ذلك وجود الأجانب الذين احتضنتهم المدينة لأكثر من اعتبار: ويأتي النشاط الاقتصادي في المقدمة، حيث بورصة القطن وبورصة الأوراق المالية، أيضًا صلة التقارب عن طريق البحر المتوسط الذي جمعهما منذ وقت طويل، كذلك الامتيازات الأجنبية التي نعموا بها دون أي مكان آخر في الشرق، نظرًا لتسامح حكام مصر بشأن خروجها عن الحدود المقرَّرة لها.

وتعدَّدت الجاليات الأجنبية بالإسكندرية، وضمت أوروبيين غربيين وليـــڤانت (وهم سكان شرق المتوسط من يونانيين ومالطيين وأرمن)، وكان لكل منها مدارسها التي بلغت عددًا كبيراً، ووضحت البصمة الثقافية الفرنسية على الأرض السكندرية، وانعكست على الصحافة الأجنبية وجدت المناخ الملائم للعمل. ونتيجة لما طرأ على المجتمع من متغيرات، جعلت الطبقة العليا تنتهج سياسة تقليد الأجانب، فعلى سبيل المثال، حرصت على تعليم أولادها في مدارسهم، بالإضافة إلى مدارس الإرساليات، وذلك في وقت ساد فيه التشجيع على التعليم بصفة عامة.

والواقع أن الصحافة المصرية قد وجدت مواكبة للصحافة الأجنبية، ففي عام ١٨٢٧ صدر "چورنال الخديو" ثم أدخلت عليه تعديلات وعرف باسم الوقائع المصرية عام ١٨٢٨، ثم صدرت الجريدة العسكرية عام ١٨٣٣، لكنها كانت صحافة رسمية. وعندما بدأ إسماعيل مشروعه التحديثي، شغلت الصحافة الركن الأساسي فيه، فصدرت صحيفتا "روضة المدارس" و"أركان حرب الجيش المصري" ومجلة "يعسوب" الطبية. ثم أصدر أبو السعود صحيفة "وادي النيل"، كما اشترك إبراهيم المويلحي وعثمان جلال في إصدار "نزهة الأفكار"، وأصبح هناك أصحاب أقلام مصريين مثل الطهطاوي وعلي مبارك وعبد الله فكري وحسين المرصفي ومحمد قدري ومحمود الفلكي ومحمد أنس وميخائيل عبد السيد.

ولم يمض الوقت الكثير حتى نزح إلى مصر مثقفو الشوام نتيجة للحوادث الطائفية لعام ١٨٦٠ ولسياسة السلطان عبد الحميد الثاني الاستبدادية وضغطها عليهم، هذا من جهة، وتشجيع إسماعيل لهم لإدراكه مستواهم الثقافي المتميز وتفتُّحهم، وأن على أيديهم سوف يكون هناك تغيير لما ينشده فيما يختص بمشروعه، أيضًا فإنهم سيكونون سندًا له في تحقيق استقلاله بمصر من جهة أخرى.

وقعت عيون هؤلاء الشوام على الإسكندرية لاعتبارات متعددة، الطابع الثقافي الفرنسي وهو ما يتفق مع نشأتهم، والمجتمع الساحلي المفتوح والكيان الصحفي الأجنبي القائم، والرؤية الاقتصادية من حيث أعمالهم المرتبطة بالتجارة والتي تقدم لها الصحافة الخدمات، والرابطة الاجتماعية سواء فيما بينهم أم بينهم وبين ذويهم في الشام.

وجاءت البداية مع سليم حموي الذي أصدر الكوكب الشرقي عام ١٨٧٣، و"شعاع الكوكب" في العام التالي ثم أصدر سليم وبشارة تقلا "الأهرام" عام ١٨٧٦، و"صدى الأهرام" في العام التالي. وعندما اختار الأفغاني أن يستقر بالإسكندرية – بعض الوقت – التي أحبها وأنشأ بها المحفل الماسوني، وتجاوب معه شبابها، وبناء على مجهوداته، صدرت "التجارة" عام ١٨٧٨ وكتب فيها مقالاته، ونشرت خطبة وتولاها أديب إسحاق وسليم النقاش. كما أصدر سليم حموي "الإسكندرية" في العام نفسه والذي صدرت فيه "مصر الفتاة". وفي العام التالي أصدر سليم تقلا "الوقت"، وفي عام ١٨٨٠ أصدر سليم النقاش "العصر الجديد" و"المحروسة".

ولم يقتصر التحرير في تلك الصحف على الصحفيين الشوام، وإنما برزت فيها أيضًا أقلام وأفكار الكُتَّاب المصريين من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم اللقاني وعبد الله النديم وحمزة فتح الله، مما عكس عملية الاندماج، وتطرَّقت الكتابات إلى موضوعات شتى، وخاصة أن الفترة الزمنية حفلت بالأحداث. إذ تعرضت مصر لأزمة مالية قاسية ترتب عليها تدخل أجنبي، بدأ ماليًّا وتدرج إلى سياسيّ، وتم عزل إسماعيل وتولية توفيق عام ١٨٧٩، ومن هنا قدمت الصحافة نفسها لتقوم بمهمتها في غرس الوعي بين الناس وتعبئة الرأي العام.

وأيقن المثقفون أن دورهم الجوهري يتمثل في توصيل الأفكار الجديدة للمصريين وتنويرهم، وخاصة أن القضايا التي عُرضت أثارت الجدل، وأصبح هناك الرأي والرأي الآخر، وغدا الشارع السكندري وكأنه في موقع الأحداث. وهاجمت الصحافة السياسة الإمبريالية والتخطيط الأنجلو فرنسي، وسجَّلت الموقف المؤيد والمعارض إبَّان الحرب الروسية التركية ١٨٧٧/١٨٧٨، وتنقَّلت الصحافة بين المذاهب السياسية وشرحت وأفاضت في أنظمة الحكم الاستبدادية والدستورية والاشتراكية والجمهورية وسلطات الحاكم وأهمية المجالس النيابية. ولم يقتصر الأمر

على الغوص في السياسة، وإنما انعطف كذلك إلى التردي الاقتصادي القائم وحركة البورصة والقروض وفوائدها، وتطرق الفكر الصحفي للعلاج، ذلك الذي ركز على مسألتين: الأولى الحد من سلطة الأجانب الاقتصادية وحصر الامتيازات، والثانية ما يجب أن يتحمله الأغنياء بشأن إنقاذ الموقف، من خلال إنشاء بنك وطني ومشروعات مصرية تعود نتائجها على المجتمع من حيث الارتفاع بمستوى عامة الناس ومعالجة البطالة.

وهذا الأمر قاد الصحافة إلى الرؤى المختلفة لإحداث تغييرات للنهوض بالمجتمع من حيث الحريات بأنواعها، والتعليم والثقافة بمختلف مناحيها، ووأد العادات والتقاليد الموروثة والسلوكيات السائدة البالية. ومما يذكر أنه منذ تلك الفترة المبكرة ، ترددت الآراء بشأن الاهتمام بتعليم البنات.

وبذاك حمل الكتاب مهمة تثقيف العقول وتفتيح الأذهان، وأصبح السكندريون يتحاورون فيما يقرءون أو ما يُقرأ عليهم. وهذا الأمر أسهم إسهامًا فعَّالاً في المشاركة في الثورة العرابية. وعندما قامت تلك الثورة في أول فبراير ١٨٨١، كانت لها المبادئ الثورية، وانعكست على المثقفين وبخاصة الصحفيين. ودخلت الساحة صحف جديدة، فأصدر النديم "التنكيت والتبكيت" عام ١٨٨١، ثم أحلَّ مكانها في العام نفسه "الطائف"، وأصدر أديب إسحاق "مصر" وسليم وبشارة تقلا "الأحوال". ولم تكن الصحيفتان الأخيرتان تحملان الفكر الثوري المتوهِّج مثل صحيفتي النديم الذي صال وجال فيها بما تناوله من قضايا متنوعة بهدف إثارة حماس الأهالي وإقناعهم بضرورة التغيير، ودوَّت صيحة "مصر للمصريين" وكيف أن مصر لم تكن لهم، وأن غيرها استنفد ثرواتها، وأنه آن الأوان لتعود الحقوق لأصحابها.

وأدخلت الثورة الشوام تحت الغرباء، وبالتالي نالوا الهجوم، وعليه فلم تكن صحفهم تسبح مع التيار، وإنما توخَّت الاعتدال. كذلك صدر قانون المطبوعات المصرية عام ١٨٨١ ليقيِّد شريف رئيس مجلس النظار الصحافة الثورية. ورغم ذلك نجد أن الصفحات تفيض بالأفكار التنويرية وتتعرض للشكل السياسي والنهوض بالاقتصاد المتعثِّر وتطرح العلاج. وتتطرق إلى العدالة الاجتماعية وأبعادها وتحث على التكامل الاجتماعي، وتبرز دور المجتمع المدني والذي تمثِّله حينئذ في الجمعيات الأهلية الخيرية. وأسفر ذلك عن النتائج الإيجابية. واحتل التعليم وما يترتب عليه المكانة، وأشير إلى تعليم البنات. وأيضا كان المدخل للتنوير عن طريق إقصاء الفكر المتخلف وتركيز الأضواء على التقدم الغربي، ولكن في الوقت نفسه كان الحرص على تجنُّب آفاته وخاصة المتعلِّقة بما يخدش الحياء وخلافه.

وتجمدت الأنشطة الصحفية مع بواكير الاحتلال البريطاني عقب هزيمة الثورة العرابية في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢، لتلك الصدمة المريرة، حيث سيطر الذهول على العقول وألقى بها في دوامة الدوار، في وقت كانت الإسكندرية فيه قد أصيبت بالخراب والدمار والحريق أثناء الحرب مع البريطانيين. هذا بالإضافة إلى السياسة البريطانية التي أرادت لندن أن تطبِّقها فيما عرف باسم النجلزة، ومعروف أن هوية الثقافة السكندرية هي الفرنسية، وكان ذلك مما يثير غيرة البريطانيين، بالإضافة إلى ذلك خططها بشأن إجهاض الحركة الوطنية ووأد كل فكر مستنير. وقد نالت القاهرة التركيز من قِبَل الاحتلال، وفي الوقت نفسه نالت الإسكندرية من الرقابة الصارمة على

الصحافة، ووجد الإنجليز العون في الشوام أصحاب الثقافة الإنجليزية والذين حضروا ليسهموا في تنفيذ التعليمات البريطانية.

ولكن الأمر لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما فاقت الإسكندرية من غفلتها المؤقتة، وعادت صحافتها لمهمتها، وهنا تغلغل داخلها أكثر من عامل: الأول و لم يكن جديدا عليها وهو الأثر الثقافي الفرنسي الذي أضيف إليه فرنسا ذاتها، بمعنى أنها الدول المخلِّصة من الاحتلال، وتزعَّمت الأهرام هذا الاتجاه والذي أيده وباركه السكندريون، وكان ذلك مما يُغضب بريطانيا.

والعامل الثاني تمثَّل في الشئون المحلية السكندرية، وذلك فيما يتعلق بالأمن ومشكلات المياه والصرف الصحي وخلافه. وبطبيعة الحال لم يكن في هذين المجالين ما يعبـــِّر عن الاستنارة التي لوحظت في الأدب، حيث عُنيت الصحافة بنشر القصص المترجمة عن الأدب الفرنسي، وبالتالي تغذى القارئ السكندري من اتجاهاتها المختلفة، كما نشرت لكتاب سكندريين، و لم تغفل تتبع النشاط الأدبي بالمدينة، وتنبَّهت إلى تأصيل الهوية المصرية عن طريق المعلومات التي سجَّلتها، وخاصة التاريخية. ومن خلال إثارة القضايا الفكرية، اهتمت برسائل القراء والقارئات.

ويأتي العقد الأخير من القرن التاسع عشر لتموج الإسكندرية بالجهود الصحفية النشطة التي نجحت في أن تجعل النوافذ مفتوحة للتيارات المختلفة. وبالطبع مثَّل تثبيت الأقدام البريطانية اتجاهًا قويًّا لمقاومته، وتولى صحفيو الأهرام ومن على شاكلتهم مهمة الوقوف أمام الاحتلال. ومن منطلق الانعطاف إلى فرنسا على أمل تقديم مساعدتها لمصر، انبثق التآلف مع الدولة العثمانية بعد ذلك التقارب الذي حدث بين الدولتين، في وقت شارك فيه مصطفى كامل الرؤية ذاتها، وقد كانت للإسكندرية مكانتها عنده لما تحمله من ميزات وخاصة صحافتها التي مضت تشدِّد هجومها على الاحتلال، وقد عرف هذا التيار بانتمائه إلى الجامعة الإسلامية العثمانية.

وعلى الجانب الآخر وُجد التيار القومي العربي وتزعمته "البصير" والذي يفصل الدين عن السياسة، وبالتالي فإن الدولة الإسلامية الكبيرة التي تدخل تحت عباءتها الولايات العربية ليست لها المكانة لديه. وقد أسفر ذلك عن تنافس وتحفيز للرأي العام الذي فكر وأدرك ووعى، وعليه تعدَّدت الآراء التي اعتمد كل منها على حججه وأسانيده، مما جعل الأرض ممهدة، وشكَّل إرهاصات لتكوين الأحزاب مع بدايات القرن العشرين.

وارتفع مؤشر الثقافة في الصحافة السكندرية، وتعدَّدت فروعها، فتناولت العلوم الطبيعية بجوار العلوم الاجتماعية، وحظيت الإسكندرية بنصيبها وبخاصة تاريخها لارتباط ذلك بتراث الوطنية، وبالذات مع إنشاء مكتبة البلدية عام ١٨٩٢ ثم المتحف الحضاري عام ١٨٩٥. ولما كانت سلطات الاحتلال تحارب التعليم، وقفت الصحافة أمامها، واحتلت صفحاتها الاهتمام به، وطالبت بأن يكون إجباريًّا، وكذلك اهتمت باللغة العربية وقضية تحديثها، وبالفعل تواجد مجمع أهلي بشأن المصطلحات الحديثة واستمر حتى ١٨٩٣، وبالإضافة إلى الترجمة المعتادة للأدب الفرنسي والذي رافقه الأدب الإنجليزي، تطرَّقت الصحافة إلى مختلف فنون الأدب، وشجَّعت وحمَّست الأدباء الشبان، وقد شغلت المرأة حيزًا كبيرًا في هذا المجال، فمن بين المراسلات التي نشرتها الصحافة ما كتبته زينب فواز ومريم خالد وأخريات تحت أسماء مستعارة.

واستمرت الصحافة في توجيه دفتها تجاه ما يجري على أرض الإسكندرية، وما يُقدم عليه المجلس البلدي الذي أنشئ عام ١٨٩٠، وجاء التركيز على النهوض بالمجتمع من حيث البيئة والأمن. وتعرَّضت الصحافة لسلبيات التأثر بالأجانب فيها، وخاصة ما يتعلق باللهو ومنكراته، والخرافات وما يرتبط بها من غيبيات. وعملت على تشجيع ونشاط المجتمع المدني من منطلق توسيع دوائر الجمعيات الخيرية بمختلف أنواعها وتحقيق التكامل الاجتماعي من ناحية، والرقي بالمجتمع عن طريق النهوض بالتعليم والصحة والفن والأدب والمعارض ومحاربة الفساد بأشكاله ورعاية الأيتام والعجزة، والأحداث من ناحية أخرى. وسجَّلت الصحافة كتابات عن أهمية المسرح بأشكاله، وما يقدَّم عليه وتناولته بالنقد سواء أكان سلبيًّا أم إيجابيًّا.

ومن الملاحظ أنه قد حدثت اختلافات بشأن النظريات المادية التي كانت تُطرح بين الحين والآخر، وذلك وفقًا لهوية الصحيفة، وبالذات ما يتعلق بالخلق والفلك وتحكيم العقل. وكتب شبلي شمِّيل في "البصير" المقالات حول ذلك، وكان قد تناول فلسفة النشوء والارتقاء من خلال ترجمة كتاب "بُخنـــر" Buchner عن نظرية داروين، ونشر ذلك في "المقتطف" عام ١٨٨٥، وفي حديث له للقراء في "البصير" يقول:

"إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمِّل، لا أطلب منك علمًا واسعًا وفلسفة بديعة وحكمة بليغة، بل أطلب منك عقلاً حُلَّت قيوده وتفتَّحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرَّر، يقدِّر مستنتجات العلم وقدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها." كما تولى فرح أنطون الاتجاه المتحرر، وأصدر مجلته "الجامعة"، وكذلك كتب في "صدى الأهرام". وذلك مما أثار المحافظين، فأصدروا ثلاث صحف ذات طابع ديني، "الحقيقة" (يهودية) ١٨٨٩، و"مرقى النجاح" (مسيحية) ١٨٩٢، و"فرصة الأوقات" (إسلامية) ١٨٩٢.

وفي خضم ذلك المناخ، وُلدت الصحافة النسائية على الأرض السكندرية عام ١٨٩٢، عندما أقدمت هند نوفل – لبنانية الأصل – على إصدار أول مجلة للمرأة في الوطن العربي والتي حملت عنوان "الفتاة". وبالإضافة إلى ما تضمَّنته من قضايا تخص المرأة وحقوقها، أبرزت دورها المهم في التاريخ القديم والإسلامي. وقد دفع ذلك الصحافة السكندرية لتستكمل مسيرتها التي سبق أن أدلت بدلوها فيها، وتناولت مكانة المرأة واستحضرت النماذج النسائية المشرِّفة عبر الزمان. وركَّزت على تعليمها ليس فقط التعليم النسوي، ولكن أيضًا التعليم بمعناه الواسع، وكيف أن جمال المرأة في عقلها الذي يصقله التعليم لما في ذلك من تأثير على شخصيتها وبالتالي على أسرتها. وقد كانت لزينب فواز كتاباتها عن أهمية ذلك.

وبالطبع فإنه من المنطقي أن يرتبط التعليم بعمل المرأة – ولكن في حدود – وأصبحت قضايا المرأة مطروحة على الصفحات من مؤيد ومعارض، وما لبث أن أصدرت ألكسندرا أفـــرينو المجلة النسائية الثانية في الإسكندرية (أنيس الجليس) عام ١٨٩٨ لتساند زميلتها "الفتاة" في المهمة الملقاة على عاتقهما. وقد كان لألكسندرا النشاط المتميز، وارتاد صالونها الأدبي في منـــزلها بزيزينيا أدباء الإسكندرية بما فيهم إسماعيل صبري محافظها. وقد شغلت منصب وكيلة الجمعية العالمية للسلام ودُعيت في عام ١٩٠٠ لحضور أول مؤتمر نسائي عالمي عن نزع السلاح. وأصدرت زينب فواز – وهي أول من كتب الرواية – عام ١٨٩٣ مؤلفها (الدر المنثور في طبقات ربات

الخدور) واحتوى على ٤٥٥ من الشخصيات النسائية، وتزعَّمت الرد على أعداء الإسلام، ورحَّبت بذلك صحافة الإسكندرية.

ومن منطلق اهتمام الصحافة بالمرأة، عرضت قضايا الأسرة، ويأتي في المقدمة الزواج، وطرحت مسألة رفع سن الفتاة عند الزواج، وأن يكون لها رأيها في الزوج الذي تختاره، وكيف أن الحياة الأسرية السعيدة لا تكون إلا بالتفاهم بين الزوجين حتى تنخفض نسبة الطلاق وتعدُّد الزوجات، وعرضت الصحافة مساوئ الزواج من الأجنبيات، وفنَّدت الأسباب من عدم تعليم الفتاة المصرية ونضجها، والمتطلبات المادية وغير ذلك. وطفا على السطح بشكل عابر ما يشير إلى الاختلاف حول حجاب المرأة وسفورها. ومما لا شك فيه أن هذا المناخ قد دفع قاسم أمين، السكندري النشأة، ليصدر كتابه عن "تحرير المرأة" في العام الأخير من هذا العقد.

أما عن الفكر الاقتصادي إبَّـــان تلك الفترة، فقد عمل جاهدًا على التوصل للسبل لفك الارتباط بالاحتلال، ونالت الثلاثية الاقتصادية الاهتمام: فيما يختص بالزراعة وعدم التركيز على القطن، أما عن الصناعة فلابد من مشروعات تُستثمر فيها أموال أغنياء المصريين مع استخدام التقنية الحديثة للوقوف أمام الاستثمار الأجنبي وحل مشكلة البطالة، وبالنسبة للتجارة المترتِّبة على الاثنتين السابقتين، فإنه يجب أن تكون هناك غرفة تجارية مصرية (حدث ١٩٢٢) ومعارض دائمة وأساليب مبتكرة في فن المعاملات التجارية.

ومن الواضح تمامًا أن ترجمة ما تناولت أقلام الصحفيين من قضايا وموضوعات، الذين هم أيضًا من أصحاب الخبرات في مجالا متعددة مثل التدريس والترجمة والنشر، بالإضافة إلى الموهبة الأدبية قد انعكست على المجتمع السكندري، وظهرت جليًّا في الجمعيات الخيرية والأدبية التي زخمت بالنشاط في المجال الاجتماعي، واحتضنت الفكر التنويري. كما احتلت الفنون موقعها المتفرد على الخريطة الصحفية، وتنافست الفرق المسرحية على مسارح زيزينيا والفيري والبوليتياما والعباسي وقرداحي. وارتبط المسرح بالغناء، كما عُرف فن البانتوميم عام ١٨٩٥، وبدأت بوادر السينما في شكل رسوم متحركة عام ١٨٩٦، وبالطبع وجد ذلك جميعه التشجيع من الصحافة السكندرية.

ومع إسدال الستار على القرن التاسع عشر، حدثت فترة انتقال، انزوت فيها الأقلام السكندرية جانبًا، وكان أهم عامل وراء ذلك أن صحيفة الأهرام، وبعد ربع قرن من الزمان في عملها بالإسكندرية وفي أول نوفمبر ١٨٩٩ قررت الاكتفاء بما قدَّمته وقامت به على الساحة السكندرية، وشدَّت رحالها إلى القاهرة التي تعني مصر كلها في لغة الخطاب، على اعتبار أن المحروسة مستودع الأخبار ودوامة الصراعات الفكرية ومخزن الثورة الإعلامية، وأيضًا لتأخذ الأهرام مكانتها وتنافس الصحف التي بدأ نجمها في البزوغ. وانطلاقًا من سياسة الأهرام، وحتى لا تترك الإسكندرية تمامًا، رأت أن تعيد "صدى الأهرام" إليها حتى لا يكون هجرًا قاسيًا، ولكن هذه الصحيفة لم يُكتب لها العمر، وسرعان ما خفت ضوء عروس البحر المتوسط بعد تسرُّب الصحفيين والصحفيات إلى مصر المحروسة.

وتدريجيًّا، ومع بداية القرن العشرين، بدأت الإسكندرية تستعيد بعضًا من نشاطها الصحفي لتبدأ في خوض مرحلة جديدة لها، لكنها لم تكن أبدًا لتضاهي سابقتها.

في النهاية، أود أن أقول هدفي من هذا العرض هو إعطاء بانوراما كاملة عن الصحافة السكندرية في فترة مهمة، تمكنت من خلالها أن تسهم في حركة التنوير التي عاشتها الإسكندرية.

جابر عصفور:

كنت سعيدًا حقيقة بما كنت أستمع إليه من هذه المحاضرة الممتعة، وحتى أنقلكم من الجو الذي أثارته واقتحمته الدكتورة لطيفة سالم إلى الدكتور أحمد زكريا الشِّلق أريد أن أؤكد ثلاث نقاط، النقطة الأولى هي أنه واضح تمامًا أن حركة الاستنارة في الإسكندرية كانت حركتين، كل حركة من هاتين الحركتين اقترنت بثورة، فالحركة الأولى كانت ذروتها ثورة عرابي والحركة الثانية كانت الذروة فيها ثورة ١٩١٩، ومن الطريف أننا لو تأملنا الأسماء التي تقترن بالاستنارة في تاريخ الإسكندرية، سوف نجد أن هذه الأسماء إما موزعة على السياق الذي كانت ثورة عرابي هي الذروة فيه أو موزعة على السياق الذي وصل إلى أعلى نقاطه مع ثورة ١٩١٩، ولذلك مثلاً إذا فكرنا في اسم النديم أو أديب إسحاق أو غيرهما من الأسماء، سوف نجد أنها اقترنت بالسياق الذي وصل إلى ذروته مع ثورة عرابي، والأمر نفسه إذا فكرنا في الجامعة وفرح أنطون وحركة المرأة وسيدة متميزة مثل روز حداد زوجة نيقولا حداد وأخت فرح أنطون، سوف نجد أن هذه السيدة والمجلة التي أصدرتها مثل غيرها من المجلات كانت مرتبطة بالمناخ الثوري المتحرر المتمرد الذي سرعان ما انفجر في ثورة ١٩١٩.

النقطة الثانية التي أريد تأكيدها لكي أصل ما قالته الدكتورة لطيفة سالم وما سيقوله الدكتور أحمد زكريا الشِّلق، أن كلتا الحركتين جمعت بين المصري وغير المصري، أي بين المصري والشامي، ولكن كان للشامي خصوصية في هذا السياق، وأغلب الشوام اللذين جاءوا إلى الإسكندرية هم مسيحيون هربوا من الاضطهاد الديني في ظل الدولة العثمانية ووجدوا في مناخ الإسكندرية وفي مصر بوجه عام درجة عالية من التسامح، وليس من قبيل المصادفة أن مصطلح التسامح وُلد في مدينة الإسكندرية وعلى صفحات مجلة الجامعة وكان ذلك بفضل فرح أنطون، لكن فرح أنطون لم يكن يستخدم التسامح الذي نستخدمه الآن ترجمة لكلمة Tolerance، وإنما كان يستخدم كلمة أخرى هي "التساهل" و"التساهل" في لغة فرح أنطون هو التسامح الذي نستخدمه الآن. خصوصية الشوام الذي جاءوا من حيث هم مسيحيون عاشوا في وسط مجتمع يضطهدهم دينيًّا، ومن حيث هم أقلية بالنسبة لأغلبية مسلمة، ومن حيث هم أقرب وأكثر عمقًا وصلة بالثقافات الأجنبية، كل ذلك جعل هؤلاء المسيحيين أكثر راديكالية أو أكثر جذرية أو أكثر تحررًا فيما يتصل بالأفكار الجديدة، ولولا هؤلاء الشوام لما مضت حركة الاستنارة في الإسكندرية.

النقطة الثالثة هي أن الإسكندرية بوصفها نموذجًا لعبقرية المكان – وهو اصطلاح جمال حمدان – مدينة بحرية مفتوحة على البحر وليست منغلقة جغرافيًّا مثل القاهرة التي يحدها كالسور الذي يفصل بينها وبين غيرها المقطم وغيره، فالإسكندرية مفتوحة على البحر أي مفتوحة على العالم وقد جعل هذا منها منذ قديم الزمان مدينة

كوزموبوليتانية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولذلك لم تحتضن الإسكندرية الأجانب فحسب، وإنما احتضنت العبقريات الإبداعية غير العربية التي ازدهرت في هذه المدينة وأكدت حضورها ووجودها وأثبتت الوجه الإبداعي لها. وأنا أفكر هنا تحديدًا في كفافيس وفي داريل صاحب رباعية الإسكندرية، واثنان من الذين برزوا في الفلسفة البنيوية كانوا أصلاً يعملون في الإسكندرية، الناقد الشهير رولان بارت استقدمه الدكتور طه حسين ليعمل بتدريس اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وجيرالد برينس كان يدرس في الإسكندرية ومنها تبلورت أفكاره التي عُرفت فيما بعد باسم "السرديات".

هذه النقاط الثلاث توضح أننا إزاء حركتين للاستنارة، كل حركة كانت مرتبطة بثورة ومناخ ثورة تتولد إلى أن تصل إلى الذروة، والخصوصية الشامية وما تنطوي عليه من ميزات جعلت الشوام أكثر جذرية وأكثر تحررًا من المصريين المسلمين المحافظين، فهذه مسألة يجب أن نضعها في اعتبارنا، والمناخ الإبداعي الذي شجع الأجانب دائمًا على الإبداع فجعل الإسكندرية متفردة بأكثر من شخصية إبداعية يتحدث عنها العالم كما يتحدث عن مدينة الإسكندرية.

بقي أن أقول نقطة صغيرة كمعلومة، شبلي شميِّل شرح فعلاً كتاب بوخنر وهو شرح على داروين بمناسبة أننا نعيش في ذكرى داروين الآن، هذا الشرح تصوروا أين نُشر؟ نُشر في مدينة طنطا وليس في القاهرة لأن شبلي شميِّل في ذلك الوقت كان يعمل طبيبًا في مدينة طنطا وطبع شرح بوخنر عن داروين في هذه المدينة الصغيرة وهي حادثة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الاستنارة لم تكن في الإسكندرية وحدها وإنما كانت تنـــتقل منها إلى بقية البلدان المصرية مهما صغرت.

أشرت إلى هذه النقاط الثلاث لكي أمهد لصديقي وزميلي الدكتور أحمد زكريا الشِّلق وسوف يحدثنا عن دور الإسكندرية في حركة التنوير المصرية.

أحمد زكريا الشِّلق:

أرجو أن تسمحوا لي بأن يكون للمحاضرة سياق تاريخي، وأن نتفق، ولو بحد أدنى، على معنى المصطلحات التي نستخدمها .. ومن هنا أود أن أشير إلى حقيقة تاريخية ترتبط بمفهوم التنوير والاستنارة في سياقهما التاريخي ، وأقصد بذلك المفهوم من حيث نشأته في سياقه الأوربي .. فالمعروف إن أوربا بدأت تاريخها الحديث بعصر النهضة الذي امتد بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر ، وكان يقصد بالنهضة البعث والإحياء، وهو ما يعني عندنا في أدبياتنا العربية اليقظة والتنبه بعد سبات أو النهوض بعد القعود .. وقد أعقب هذا العصر ما أطلق عليه عصر التنوير أو الاستنارة الذي انطلق مع تطور الفكر الفلسفي بفرنسا وبقية أوربا، عندما صار العقل سيدا، وبرزت النـــزعة الفردية .. والوضعية .. وتخففت المجتمعات من أسر التقاليد والخرافات، وقد استغرق هذا العصر القرن الثامن عشر تقريبا .. وأعقبته فترة الحداثة والتي بدأت بالثورة الفرنسية الكبرى والتي برزت أوضح ما تكون في مذاهب الآداب والفنون على وجهه الخصوص .. ويؤرخون استمرارها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لتبدأ بعدها ما عرف بفترة ما بعد الحداثة ..

وإذا كانت المفاهيم السابقة وتقسيماتها تتعلق بالتاريخ الأوربي، فقـــد صارت تخصنا بشكل أو آخر لتأثرنا بهذا التاريخ من خلال الغزو والاستعمار تارة أو من خلال التواصل والاتصال الإرادي تارة أخرى .. ولا نجد بأسا أو حرجا إذا كنا نقتبس من ثمار النهضة والاستنارة، بما فيها المفاهيم، إذا كانت تتمشى مع ظروفنا وطبيعتنا .. وإذا كان التنوير، كمرحلة تاريخية قد انتهى في أوربا مع بداية القرن التاسع عشر، فلا بأس من أن ينبعث في تاريخنا في أواخر ذلك القرن ومع بداية القرن العشرين .. ولا بأس أن ننهض وتختلط النهضة بالتنوير ما دام هدفنا الأسمى هـــو تقـــدم وطننا ورقيه ..

وقد تظهر النهضة والتنوير، ليس فقط في كتابات المفكرين وكبار المثقفين، وإنما تظهر في تكوين وإنشاء المؤسسات التي تنهض بالمجتمع وحركته سواء كانت حكومية أو أهلية، وقد تظهر النهضة والاستنارة في شكل تأسيس جمعية إصلاحية أو تنظيم جماهيري، أو في شكل تأسيس متحف للآثار والتاريخ، أو مركز من مراكز الأبحاث، أو حزب سياسي وكذلك في تأسيس جامعة حديثة عصرية، كما تظهر آثار النهضة والاستنارة في حركات التجديد في الآداب والفنون .. المهم أن الاستنارة ليست مجرد دعوات فكرية، وهي مطلوبة، وإنما هي أيضا إنجازات ومؤسسات وهيئات وأنشطة تدفع بحركة المجتمع وثقافته إلى آفاق رحبة من العلم والمعرفة والحضارة الحديثة والرقي الإنساني في أبهى صورة.

ومن المسلَّم به أن حركة التنوير التي شهدتها مصر في مجالات الفكر والعمل، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي شملت أنشطة ومجالات عديدة، ساهمت فيها الإسكندرية بنصيب وافر وجهود متميزة. هذه حقيقة لا جدال فيها، فالإسكندرية حاضرة ومؤثرة وفاعلة في كل ما أنجزته وتنجزه حركة التنوير المصرية، ولعلنا نتساءل ما الذي يميز الإسكندرية حتى نستطيع أن نتحدث ونكتب عن دورها في هذه الحركة؟ وما هي المبادرات التي حدثت والجوانب التي تميزت فيها بالضبط؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه والذي يقتضي التركيز على الدور الخاص، إلى جانب الدور العام في مسيرة الوطن.

وسوف أختار هنا عددا من "الإضاءات" الرئيسية التي بادرت بها الإسكندرية في حركة الاستنارة المصرية، وسجلتها في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

أول هذه الإضاءات تأسيس أول جمعية سياسية شعبية وهي *جمعية مصر الفتاة* عام (١٨٧٩) التي تعد بحق أول حزب سياسي عرفته مصر الحديثة وإن لم يكن لها طبيعة البناء الحزبي بمعناه الكامل فهي في الواقع أول تجمع مدني أقامه بعض دعاة الإصلاح والتغيير بعد تدهور أوضاع مصر السياسية والاقتصادية خلال سبعينيات القرن التاسع عشر.

ففي مسرح زيزينيا بالإسكندرية ألقى جمال الدين الأفغاني خطبة نشرتها "صحيفة مصـــــر" في ٢٤ مايو ١٨٧٩ دعا فيها إلى إنشاء حزب وطني وإلى إحياء اللغة العربية، وتعليم المرأة، كما دعا إلى نبذ التعصب ومقاومة الاستبداد وتدعيم الشورى .. وأضاف أن ذلك لا يكون إلا بإنشاء قاعات للخطابة وتأسيس الجرائد الحرة.

ويلاحظ أن أغلب أعضاء جمعية مصر الفتاة، في بدايتها، كانوا من غير المصريين وإن نجحوا في أن يضموا إليهم عددا من المصريين المسلمين، وقد أنشأوا لها صحيفة تنطق باسمها هي صحيفة "مصر الفتاة " التي كانت تنشر فصولا حادة الانتقاد شديدة الموعظة، حسب تعبير الشيخ محمد عبده، وكانت تحرر باللغتين العربية والفرنسية، وتصدر بالإسكندرية بطبيعة الحال حيث كان يكتب فيها بعض أعضاء الجمعية من "رجال الحرية من وطنيين وأجانب تحت إدارة أديب اسحق" والمعروف أن الجمعية تأسست بعد أغسطس ١٨٧٩ أي بعد رحيل الأفغاني عن مصر وأنها كانت ذات نشاط علني وليس سريا.

وكانت بعض الأسر الشامية واليهودية بالإسكندرية قد ساندتها ماليا (ممثلة في آل سرسق وقطة وزغيب والمخلع) كما ضمت بعض المسلمين على رأسهم عبد الله النديم ، ومن الـــــواضح أن جمال الدين الأفغاني كان أبا روحيا لهذه الجمعية رغم تأسيسها بعد إبعاده عن مصر.

وكان ظهورها بالإسكندرية، حيث تركزت الجاليات الأوربية والشرقية المهاجرة إلى مصر .. ورغم أن معظم أعضائها كانوا من الشوام، فقد كانت مبادئها تساوي بين المصري بالميلاد وغير المصري الوافد في حقوق المواطنة وواجباتها .. رغم أنها بـــــــدأت نشاطها على نطـــــاق ضيـــــق في أواخر عصر الخديو إسماعيل ـــ قبل شهر من عزله ـــ فقد توسعت بعد ذلك ونزلت إلى ميدان العمل الجماهيري بصحيفتها الخاصة وببرامجها الإصلاحية . وتعد "لائحة الإصلاح" التي قدمتها الجمعية للخديوي توفيق أهم إنجازاتها، فقد كتبت بطريقة منهجية منظمة وموثقة بالمعلومات والإحصاءات، بدأت بشرح أوضاع البلاد السيئة خاصة في الريف وتحدثت عن فداحة الظلم الواقع على الفلاحين منذ عهد إسماعيل وحكوماته الفاسدة، وانحطاط الإدارة، وفساد القضاة، كما شخصت اللائحة في الفصل الثاني منها، أسباب شقاء البلاد وأولها "اجتماع السلطة في يد واحدة" ـــ على حد تعبيرها ـــ وغياب الدستور وعدم وجود قانون للانتخابات أو قانون للموظفين .. إلخ، كما تركز الفصل الثالث والأخير حول طرق الإصلاح المقترحة .. لقد أرجعت اللائحة أسباب شقاء البلاد إلى الحكم الاستبدادي واعتبرته على رأس أسباب الشقاء "فلا يخفى أن رعية الحكومة الاستبدادية يكونون كالعبيد الأرقاء يرهبون سيِّدَهم لكن لا يحبونه. ويخافون الحكومة لكن لا يحترمونها. وتتمكن فيهم أقبح الطبائع، إذ يفرحون بما ينـــزل بحكامهم من المصائب، حقدا عليهم بما كانوا يظلمونهم".

وتنبه اللائحة إلى أن غياب الدستور يأتي في المحل الثاني من أسباب الشقاء الأساسية بعد حكم الفرد، وتشير كذلك إلى سببين آخرين هما غياب العدالة والقانون، ونقصان المعارف العمومية. يضاف إلى ما سبق ما ورد باللائحة من عدم وجود قانون انتخاب وعدم استقلال النـــواب مع ما يضمن حرية مداولاتهم وتنفيذ قراراتهم،

وعدم وجود قانون للموظفين يبين حقوقهم وواجباتهم وسوء ترتيب الإدارات المالية وعدم المساواة في تكاليف الحكومة ونفقاتها ... إلخ .

وقد فسرت اللائحة كيف إن نواب الأمة المنتخبين ليسوا موظفين في الدولة ولا يحق لهم أن يتقاضوا الرواتب .. كما فسرت معنى استقلال القضاء والقضاة .. ودعت إلى "التفريق" بين السلطات الثلاث التنفيذية (الإجرائية) والتشريعية (القانونية) والقضائية بحيث تصان حقوق رئيس الحكومة – ورغم أنها لم توضح هل هو الخديو أم رئيس الوزراء وإن كان واضحا أنها تقصد الخديو– وتصير الأهالي أمة حقيقية. وقد نادت اللائحة بتكوين برلمان من مجلسين أحدهما للنواب والآخر للشيوخ وأن يكون للأخير حق محاكمة الوزراء ، وأن لا يكون للخديو حق وقف القوانين المنشورة أو منع تنفيذها . كما نصت اللائحة كذلك على ضرورة صيانة الحرية الفردية، ونادت بوضع قانون للجنسية .. إلخ، وطالبت كذلك بحرية المطابع والمجامع وحرية إصدار الصحف والكتابة.

وتمنى واضعو اللائحة في النهاية " أن يصرف الخديو عنايته إلى هذا الإصلاح فيحصل له الحق الشرعي في ممنونية أهل هذه البلاد في الحال والاستقبال "الإسكندرية في سنة ١٨٧٩" (لائحة إصلاح مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الأول خديو مصر خدمة من : جمعية اتحاد فتيان مصر).

الإضاءة الثانية ـــ وإن كانت الأولى من الناحية الزمنية ـــ هي تأسيس *الجمعية الخيرية الإسلامية* بالإسكندرية عام ١٨٧٨ باعتبارها إحدى جمعيات المجتمع المدني ـــ بلغة عصرنا ـــ التي أنشئت لأهداف اجتماعية وإنسانية وكان الدافع من وراء قيامها ما لوحظ من ظهور كثير من الجمعيات التي أسستها الجاليات الأجنبية في الإسكندرية .. لا بأس .. (المهم أنها سبقت تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست بالقاهرة عام ١٨٩٢ بجهود عدد من المصلحين الإسلاميين على رأسهم الإمام محمد عبده ، وعدد من الأعيان المصريين)

وقد تأسست هذه الجمعية الأولى ـــ السكندرية ـــ بمسعى من السيد عبد الله النديم ومساعدة ودعم عدد من ثراة المدينة، يتقدمهم سعد الله بك حلابة، وكان الباعث على تأسيسها هو شعور الأهالي بطغيان النفوذ الأجنبي في البلاد، وتدخل الأجانب في شئونها واستئثارهم بمرافقها ومؤسساتها، إنها الغيرة الوطنية التي تنمي الشعور الوطني وتزكيه .. المهم كان من أهم أهداف الجمعية "فتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات وتهذيب الأخلاق وإعانة الفقراء" وقد أنشأت الجمعية بالفعل مدرسة لتعليم البنين والبنات وتأسس فيها محفل للخطابة لتلقى فيه المحاضرات والخطب كل أسبوع .. كما وضع لها قانون ينظم نشاطها وإدارتها، وإزاء جديتها ونشاطها رأت الحكومة المصرية أن تخصص لها راتبا سنويا على سبيل الإعانة .

الإضاءة الثالثة وهي تأسيس *المتحف اليوناني الروماني عام ١٨٩٢* ، يلاحظ أن التطورات التي شهدها علم الآثار والمتاحف يعد جزءا من نشاط الشعوب والدول لكي تقدم نفسها باعتبارها أمما حديثة وناهضة، فضلا عن أن المتاحف التي نشأت في الدول المستعمرة كانت ساحة متميزة للنضال من أجل الاستقلال الوطني والإحلال محل الأجانب وتأكيد الهوية الوطنية.

وكما نعلم كانت الإسكندرية هي العاصمة البطلمية لمصر واستمرت زمن حكم الرومان لها ، منذ أن نقل البطالمة والرومان عاصمة مصر إليها، حتى أعادها الحكام العرب إلى الفسطاط .. وعندما جاءت حملة بونابرت إلى الإسكندرية كانت قد اضمحلت وهبط سكانها إلى نحو ثمانية آلاف نسمة. وجاء محمد علي لإحياء الثغر باعتباره بوابة مصر إلى الاقتصاد العالمي الذي تتحكم فيه أوربا مع الإبقاء على القاهرة عاصمة للبلاد، وبنى المقدوني الثاني — محمد علي باشا – قصرا في رأس التين ليقضى فيه جانبا من وقته. وحفر ترعة المحمودية ليسقي الإسكندرية من ماء النيل العذب ويصلها بالنيل بخط نهري، وفي الإسكندرية أنشأ الترسانة التي بنى فيها أسطولا، وعند وفاته صار سكانها ١٠٤ آلاف نسمة وفي عهد الاحتلال البريطاني بلغ سكان الإسكندرية ٢٣١ ألف نسمة، وفي عام ١٩٠٧ بلغ ٤٠٣ آلاف نسمة وتغيرت نسبة الأوربيين من ٥% عام ١٨٤٨ إلى ٢٥% عام الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢، واستمدت النخبة التجارية التي جذبها الاقتصاد المزدهر شرعيتها بالإسكندرية من الماضي اليوناني الروماني، فكان غالبية ملوك التجارة بالإسكندرية من الأجانب تقريبا.

وكان اسم الإسكندرية ذاته يبقي على ذكرى مؤسسها حية في الأذهان، ومع وجود الآثار اليونانية الرومانية مطمورة هناك حيث كان التراث الكلاسيكي أكبر حجما مما هو موجود في القاهرة، ولما كان اليونانيون يمثلون أكبر الجاليات الأوربية في الإسكندرية، فقد كان من أشهر اليونانيين السكندريين المهتمين بالآثار التاجران استيفان زيزينيا وجون أنطونيادس، وقد أصبح الأول رئيسا للجالية اليونانية بالإسكندرية، وأصبح الثاني الراعي الرئيسي للمتحف اليوناني ـــ الروماني، فقد ترك قصره وحديقته لبلدية الإسكندرية، أما عن قصة نشأة وتأسيس المتحف اليوناني الروماني فنوجزها على النحو التالي:

- فيما بين عامي ١٨٥٩ ـــ ١٨٨٠ استقر المجمع العلمي المصري (الذي كان الفرنسيون قد أقاموه خلال فترة غزوهم مصر عام ١٧٩٨) بالإسكندرية فقدم للسكندريين منبرا جاهزا للحوار في الكلاسيكيات وغالبا ما كان المثقفون يقدمون أوراقا في موضوعات يونانية ـــ رومانية ينشرها المجمع في مجلته .. واستطاع المجمع أن يحصل على مجموعة متواضعة من الآثار، وفى الستينيات أشار المجمع إلى حاجة الإسكندرية إلى متحف، ثم أسس "اللجنة الدائمة للآثار" لحماية الآثار من الدمار الذي تتعرض له، ومن نهب الرحالة والسياح، وعند انتقال المجمع مع مكتبته إلى القاهرة ترك فراغا في الحياة الثقافية السكندرية .
- وفي عام ١٨٩١ أسس القنصل البريطاني كوكسن بالاشتراك مع مجموعة من الأفراد "الجمعية الأثينية" التي نجحت في حشد مجموعة من قيادات المجلس البلدي للإسكندرية وراء فكرة إقامة متحف يوناني–روماني وفي العام التالي سنة ١٨٩٢ نشطت هذه المجموعة من كبار الشخصيات من الأوربيين والمهنيين ـــ من خلال المجلس البلدي ـــ لإقامة المتحف الذي اعترضت الحكومة عليه باعتبار أن إدارته ستكون من الهواة، غير أن الحكومة ما لبثت أن تراجعت عن موقفها ووافقت على إنشاء المتحف على أن تتولى مصلحة الآثار الإشراف عليه، كما تتحمل البلدية جميع تكاليفه، وصار مدير المدرسة الإيطالية بالإسكندرية (بوتّى) مديرا له.

• وكان من الطبيعي أن يلعب مؤسسو مكتبة البلدية والمتحف بمشاعر الحنين إلى الماضي القديم للإسكندرية ومكتبتها .. وقام كل من المتحف الحديث وجمعية الآثار ببناء مكتبته العلمية الخاصة به، وتركوا لمكتبة البلدية مهمة خدمة القراء العاديين وتزويدهم بالكتب بمختلف اللغات الأوربية إضافة إلى اللغة العربية.

• وكان لأعضاء "الجمعية الأثينية" دور بارز إلى جانب اثني عشر مثقفا في إنشاء "جمعية آثار الإسكندرية" عام ١٨٩٣ لتوفير الدعم للمتحف الجديد، وكانت عضوية الجمعية تعبر عن الطابع المختلط (الكوزموبوليتاني) للمدينة. ولذا خلت من المصريين في البداية، المهم أن إسكندرية الخديويين الحديثة اتصلت بإسكندرية البطالمة القديمة.

• وجاء المتحف فريدا بين متاحف الآثار المصرية من حيث تمتعه بدعم جماعة منظمة هي (جمعية الآثار) التي رعت المحاضرات والرحلات والمجلة العلمية (التي بدأت نشرها عام ١٨٩٨) باللغات الأوربية الحديثة، وكانت رئاستها للأوربيين وحدهم وإن اختير الأمير عمر طوسون رئيسا فخريا لها، وفي عام ١٩٠٢ كان هناك أربعة مصريين من بين أعضاء جمعية الآثار البالغ عددهم ١٠٢ عضوا.

• اتخذ المتحف لنفسه مقرا مؤقتا في مبنى البلدية حتى افتتح الخديو عباس حلمي مقره الجديد عام ١٨٩٥ وبدأ يمتلئ تدريجيا بالآثار التي كشفتها الحفائر التي قام بها المتحف وبالهبات التي قدمها المواطنون المتحضرون، وبما تم نقله من المتحف المصري بالقاهرة من الآثار اليونانية والرومانية.

الإضاءة الرابعة هي نشأة *أول حزب اشتراكي في مصر* (١٩٢٠ ــ ١٩٢٤) بالإسكندرية ، ففي أوائل القرن العشرين نشط العمل النقابي في مصر بشكل لم يسبق له مثيل وبرزت نقابات عمال السجائر والعمال الذين يعملون في المباني وعمال المطابع وعمال عنابر بولاق، وورش السكك الحديدية وعمال الترام، مما أوجد حركة عمالية نشطة برزت خلالها أفكار اشتراكية وشيوعية واضحة، وظهر عام ١٩٠٩ "الحزب الاشتراكي المبارك" الذي لم يقدر له أن يتحول إلى حزب سياسي جماهيري وبقي مجرد محاولة فردية.

ويلاحظ أن الإسكندرية كانت تموج بحركة نقابية واسعة طوال هذه الفترة .. فقد تكونت فيها وحدها ٢٣ نقابة عمالية لعبت دورا كبيرا من خلال الإضرابات التي نظمتها واستطاعت الحصول على مكاسب عمالية مهمة، خاصة فيما يتعلق بأجور العمال وتحديد ساعات العمل .. إلخ، وبدا واضحا أن الحركة العمالية تتحول من مجرد حركة تعاونية في عهد الحزب الوطني المصري (حزب مصطفى كامل ومحمد فريد) إلى حركة نقابية صحيحة تنظم الصفوف وتقود وتبرز وتعبر عن العمال ومطالبهم .

وفي الإسكندرية على وجه التحديد بدأت تتكون خلايا اشتراكية منذ عام ١٩١٨ بسبب تواجد الجاليات الأجنبية فيها من يونانية وإيطالية وروسية وغيرها، وفي رواية ياناكاكس التاجر اليوناني بالإسكندرية والذي لعب دورا في نشر الاشتراكية بين اليونانيين والأرمن ذكر أن أول حركة اشتراكية في مصر ظهرت بالإسكندرية عام ١٨٩٥ عندما أنشئت نقابة لعمال الأحذية و لم يتضح إن كان بها مصريون أم لا؟

ومع بداية القرن العشرين وفد جوزيف روزنتال إلى الإسكندرية واكتسب الجنسية المصرية ليصبح أهم مؤسسي الحركة الاشتراكية في مصر في أوساط العمال الأجانب في البداية، ثم في أوساط المصريين، وقد استطاع روزنتال أن يؤسس حزبا اشتراكيا من الأجانب مقره الإسكندرية عام ١٩٢٠. وقد شهدت نفس الفترة تقريبا نشاط مجموعة من البلشفيك الروس بالإسكندرية ـــ خاصة بين البحارة ـــ حيث اندسوا في صفوف العمال وأسسوا مجموعة لمساندة الحركة العمالية المصرية، غير أن المجموعة الإيطالية بالإسكندرية كانت أكثر تنظيما .. وقد وزعت منشوراتها في المدن الكبرى، كما استطاعت أن تؤسس بالإسكندرية ما سُمي حينئذ "بالجامعة الشعبية الحرة" لتعليم العمال.

وقد نشر روزنتال نداءات للنقابات العاملة في مصر يدعوها لتأسيس اتحاد يضمها جميعا، واستجابت له وأرسلت إليه في الإسكندرية مندوبين يمثلون ٣٥ ألف من العمال للمشاركة .. وذكر كذلك أنهم فكروا في تأليف حزب سياسي ليكون لسان حال نقابات العمال للدفاع عن مصالحهم في المجلس النيابي، وليسعى لدى الحكومة لإصدار قانون اجتماعي لحماية العمال الخاضعين للرأسمالية وظلمها . وتفيد بعض المصادر أنه رغم هذه النداءات فإن الحزب كان موجودا بالفعل، وذلك أن روزنتال كان قد أسسه من الأجانب الموجودين في الإسكندرية فعلا..

أما الجديد في الأمر هو أن هناك مجموعة من المثقفين المصريين كانت تسعى بدورها لتأليف حزب اشتراكي مصري منهم: سلامة موسى ـــ وعلى العناني ـــ وعبد الله عنان ـــ وحسني العرابي ـــ والشيخ صفوان أبو الفتح ـــ وأحمد المدني ـــ وأنطون مارون والشيخ عبد اللطيف بخيت" وأكثرهم من الذين عاينوا بأنفسهم النضال القائم في أوربا بين رأس المال والعمل. لذلك قروا تأليف جمعية تضم شملهم وتمكنهم من المذاكرة في زرع هذا المذهب وتطبيقه على الأحوال المصرية ..".

وكتبوا إلى روزنتال الذي رحب بهم واجتمع معهم واتفقوا على تأسيس الحزب الاشتراكي المصري في أغسطس عام ١٩٢١. وكان من الواضح أن الحزب يضم فريقين من الاشتراكيين المعتدلين والشيوعيين المتطرفين لذلك لم يلبث أن انشق عام ١٩٢٢ حين قررت شعبة الإسكندرية، والتي كانت تمثل الجناح المتطرف الماركسي للحزب (يقوده روزنتال والعرابى ومارون وصفوان أبو الفتح وأحمد المدنى واسكندر صاده) أن تشكل حزبا خاصا في ديسمبر ١٩٢٢ تحت اسم "الحزب الشيوعى المصرى" الذى عزز من نشاطه في الإسكندرية حيث كانت تتركز القوى الأساسية للطبقة العاملة .. بينما ظل سلامة موسى والعناني وعنان بالقاهرة يمارسون نشاطا ثقافيا محدودا وتقليديا .

غير أن الحزب الشيوعي لم يكمل عامين من عمره حيث اصطدم مع الحكومة في عهد وزارة الشعب ورئيسها سعد زغلول، حين قام العمال من أعضائه في فبراير ومارس ١٩٢٤ بحركة واسعة لاحتلال المصانع التي

يعملون بها لإجبار أصحابها على قبول مطالبهم فاعتبر زعيم الأمة ذلك نوعا من الاغتصاب وتصدت الحكومة لذلك واعتقلت زعماء الحزب وحاكمتهم في أكتوبر ١٩٢٤ في محاولة لقطع دابر الشيوعية.

الإضاءة الخامسة هي *إنشاء جامعة الإسكندرية* عام ١٩٣٨، ولا جدال في أن تأسيس الجامعات العصرية لتوسيع قاعدة التعليم المدني العالي يعد واحدا من أهم معالم النهضة والاستنارة .. ولم يكن بمصر سوى جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) والتي ضاقت عن استيعاب الأعداد المتزايدة من أبناء الوطن الراغبين في استكمال تعليمهم العالي، لذا قام ثلاثة من فرسان الاستنارة في مصر بالدعوة لإنشاء جامعة حديثة أخرى في الإسكندرية، وكانوا وراء تأسيسها وإدارتها، وهم أحمد لطفي السيد مدير جامعة فؤاد الأول، والدكتور طه حسين عميد كلية الآداب بها، ثم الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف العمومية في وزارة محمد محمود عام ١٩٣٨.

وبالفعل وافق مجلس جامعة فؤاد الأول في مايو ١٩٣٨ على إنشاء فرعين لكليتي الآداب والحقوق بالإسكندرية ليكونا نواة جامعة مستقلة فيما بعد .. ثم صدق مجلس الوزراء على ذلك في أغسطس ١٩٣٨، وبدأت الدراسة بالكليتين في العام الدراسي ٣٨ ــ ١٩٣٩ .. وفى العام الدراسي ٤١ - ١٩٤٢ وبعد اتخاذ الاستعدادات العلمية والفنية أنشئ فرع لكلية الهندسة بالإسكندرية.

وفي أغسطس عام ١٩٤٢ صدر مرسوم ملكي بإنشاء "جامعة فاروق الأول" بالإسكندرية لتضم إلى جانب الكليات السابقة الثلاث كليات للطب والعلوم والزراعة والتجارة بالإضافة إلى إنشاء عدد من الكليات والمعاهد التي يمكن أن تنشأ بقانون .. كما نصت المادة الثانية من المرسوم على أن مهمة الجامعة هي تشجيع البحوث العلمية، والعمل على رقى الآداب والعلوم في البلاد .. وصدر قرار بتعيين الدكتور طه حسين أول مدير لجامعة فاروق الأول.

ويلاحظ أنه رغم ظروف الحرب العالمية الثانية كان ثمة إصرار على إنشاء الجامعة واستكمالها، ولم تلبث الجامعة الوليدة أن اشتد عودها وبدأت تستكمل كوادرها الخاصة من خلال البعثات العلمية .. وظلت تحمل اسم فاروق الأول (في العهد الملكي) حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ حين سميت بجامعة الإسكندرية في سبتمبر من نفس العام .. وقد تميزت الجامعة نتيجة لتاريخ المدينة وموقعها على البحر الأبيض المتوسط، بالاهتمام الخاص بدراسة الحضارات القديمة وخاصة اليونانية والرومانية، كما اهتمت اهتماما واضحا بالتاريخ الأوربي الحديث وباللغات الأوربية .

وقد واصلت الجامعة دورها الحضاري والتنويري كمؤسسة علمية أكاديمية داخل مصر وخارجها خاصة عندما تبنت إنشاء جامعة بيروت العربية منذ عام ١٩٦٠، وخرجت لمصر أجيالا من المثقفين والعلماء الذين لعبوا دورهم في تقدم الوطن ونهضته، وكان أحمد زويل أحد أبرز طلابها.

الإضاءة الأخيرة : *في جاذبية الأدب*، تجلس الإسكندرية على شاطئ الوطن ـــ وهو في قلبها ـــ ترقبه بحب وحدب وتساهم في نهضته واستنارته بكل شوق ونزق، وأحيانا بقدر من الغلو .. لا بأس ..

- فها هي توحي لأحمد شوقي بأحداث مسرحيته "مصرع كليوباترا "، وتفجر لديه ينابيع الشعر المسرحي أو المسرح الشعري، فيبدعه ويؤصِّله في فنون العربية، وليصبح فارسا من رواده ومؤسسيه، حين ينطق أبطال المسرح شعرا.
- وللإسكندرية دور مذكور في نشأة فن التمثيل المسرحي في مصر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منذ أيام أبو خليل القباني وسليم نقاش، حين كانت الإسكندرية مركز العمل الصحفي والمسرحي في مصر، فها هو مسرح زيزينيا الذي تأسس بالإسكندرية لتقدم عليه عروض الفرق الشامية النازحة أو الزائرة، ومنه تنتقل العدوى إلى المدارس فتقيم هي الأخرى مسارحها، بل و لم تقتصر هذه المسارح على أداء وعرض المسرحيات وإنما اتخذت في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر منابر للخطابة والخطباء.
- وها هي الإسكندرية المدينة الوحيدة التي استطاعت انتزاع نجيب محفوظ من قلب القاهرة المعزية، الأثيرة لديه، من بين القصرين وخان الخليلي وزقاق المدق، ليأتي بأبطاله إلى بنسيون الميرامار حيث تدور وقائع وأحداث روايته الشهيرة، وهل ثمة مكان آخر انتزع نجيب محفوظ من قاهرته القديمة سوى الإسكندرية؟ (السمان والخريف ـــ الطريق ـــ ميرامار ..) ولكن محفوظ لم يأت للإسكندرية ليقول شعرا، وقد قاله، وإنما جاء بأبطاله إلى ساحل الوطن، إلى آخر نقطة فيه، ليرقب مسيرة ثورته، ثورة يوليو من بعيد، وليراجع هذه المسيرة من داخلها في حب وخوف وتحذير وتنبيه.

وهنا تتجلى عبقرية الروائي العظيم في بلوغ الغاية من الاستنارة والتنوير، العقل والنقد، أو التفكير العقلاني النقدي. ومع ذلك أنطقت الإسكندرية نجيب محفوظ شعرا، فحين تبلغ لغة الكاتب هذه الدرجة من التكثيف والعمق والشفافية والمجاز، فإنه يتجاوز الحدود المألوفة بين لغة القصة ولغة الشعر .. لا فرق، فيقول :

الإسكندرية أخيرا..
الإسكندرية قطر الندى
نفثة السحابة البيضاء
مهبط الشعاع المغسول بماء السماء
وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع ..

* * *

غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد
وثورة الرياح وانهلال المطر..
واستقبلني الوجه الآخر للإسكندرية .. الذي أفرغ غضبه وثاب إلى وداعته ..
تلقيت الشعاع الذهبي المغسول بامتنان ..
نظرت إلى الأمواج وهي تتتابع في براءة ..
على حين نقشت السماء بسحائب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة ..

* * *

مصر وطنك .. والإسكندرية ليس كمثلها شيء
ليس كمثلها شيء !!

جابر عصفور:

أظن أنه بعد جملة "الإسكندرية ليس كمثلها شيء" لا تبقى سوى التعليقات من الحضور، ولكن قبل أن أبدأ بالتعليقات والنقاش فاسمحوا لي أن أبدأ أنا شخصيًّا بسؤال يقول ما الذي جرى للإسكندرية؟ هذه المدينة التي أنشأت أول جمعية سياسية وصنعت الجامعة وصنعت الاستنارة والتي خرجت منها أول صحيفة نسائية، فما الذي جرى لهذه المدينة الجميلة وشوهها على هذا النحو؟

سعيد حسن:

نطالب جميعًا بأن يكون المقر الرسمي لوزارة الثقافة هنا في الإسكندرية، ونتساءل متى تعود أقسام الصحافة في جامعة الإسكندرية؟ متى يتم رد الاعتبار للصحافي عبد الله النديم وإطلاق اسمه على أي مبنى ثقافي؟ وكذلك جماعة إخوان الصفا وحفني ناصف وهدى شعراوي والأمير المفكر عمر طوسون باشا ومن قادوا ثورة الإسكندرية عام ١٩٤٦ المجهَّلة دائمًا؟ نطالب جميعًا بإعادة النظر لقانون الصحافة المصرية وقانون المطبوعات المصري ولهما الاستقلال الذاتي بعيدًا عن السلطة التنفيذية، وكثير من الصحف المصرية تصدر لها تراخيص من قبرص. متى يتم إلغاء عقوبة الحبس والغرامة المالية، عشرون ألفًا من الجنيهات كالسيف المسلط على رقاب الصحفيين المصريين وهناك وعد منذ سنوات من رئاسة الدولة لهذا الإلغاء. رجاء عام من أهالي الإسكندرية باستمرار الدور الذي تقوم به مكتبة البلدية بمتحف الفنون الجميلة "حسين صدقي"، وعدم نقلها لأي مكان آخر حتى لو كان مكتبة الإسكندرية.

وأتساءل متى يتم التفعيل العاجل لكل قوانين حماية اللغة العربية والهوية القومية العربية من ظاهرة التغريب الفجة لأسماء المحلات التجارية في مصر؟ نطالب بنقل تمثال رائد المعرفة طه حسين القائم في الحديقة الخلفية لإدارة

جامعة الإسكندرية إلى طريق الكورنيش على قاعدة عالية محاطة بالأضواء. وفي الختام، أضيئوا المشاعل واجعلوها نورًا يضيء لا نارًا تحرق !

حسن السعدي (أستاذ في قسم التاريخ في كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

في الحقيقة، إن قضية الدور التنويري الخاص بمدينة الإسكندرية وفي ضوء ما ذكره المتحدثون يجعلني أتوقف عند بعض النقاط، فما فهمته من الدكتورة لطيفة سالم فيما يتعلق بالدور المحافظ قد انصب في الرد على شبلي شميِّل من ثلاثة توجهات دينية بغض النظر عن كونها يهودية ومسيحية وإسلامية، على الرغم من أنه كان لي دراسة متواضعة وأنا أكتب هاويًا في التاريخ الحديث ونُشرت في مجلة أكتوبر، على أنه قبل قاسم أمين، كان لأحد الأزهريين "قول فصل" حسب ما أطلق على كتابه فيما يتعلق بقضية المساواة وحقوق المرأة وما إلى ذلك وكان يُعد طفرة في الفكر آن ذاك.

القضية الأخرى فيما يتعلق بالاستنارة ومفهوم النهضة، أنا أتصور حسب ما فهمته من الدكتور أحمد زكريا الشِّلق أنه وفقًا للتقسيم الزمني أن النهضة أولاً ثم بعد ذلك الاستنارة ثم يتم نوع من التفعيل لها في ضوء المؤسسات، وإن كنت أرى من وجهة نظر خاصة أن الاستنارة بطبيعتها تحتية بمعنى أنه يهتم بها وبأفكارها أصحاب الرأي والفكر والثقافة ثم بعد ذلك تُفعَّل في شكل مشاريع نهضوية فوقية أعني بها هنا من الحكومات أو أصحاب القرار، ولست أدري ما رأيكم في ذلك؟

القضية الأخيرة مرتبطة بمسألة الانسحاب الذي حدث لأهمية الإسكندرية لصالح القاهرة، وأحسب أن قضية الإقليمية هنا في ضوء ما تحدث به المتحدثون، عندما تبزغ في إحدى الأقاليم المصرية هل تشكل إضافة للكل القومي أم أنها تُحدث نوعًا من التجذر أو الانكفاء على الذات بحيث تكون للإسكندرية شخصيتها ولطنطا شخصيتها ولسوهاج شخصيتها، لاسيما وأنه من الواضح من كل ما قيل أن القاهرة وقد أصبحت وعاءً لكل تلك التيارات وهو ما يجعلنا أيضًا نطرح سؤالاً وهو ما شخصية القاهرة في ضوء ما قيل؟ ربما أن معالم شخصية الإسكندرية قد تحددت في كثير من الأقاويل، يبقى أيضًا طالما أننا نتحدث عن رد الاعتبارات التي تحدث بها الأستاذ سعيد حسن أن أقول أننا قد أغفلنا سيد درويش، والأغنية كانت تلعب دورًا مهمًّا في التنوير، ويجب أن نذكر أيضًا بيرم التونسي، فالأغنية هي البُعد الثقافي والأكثر سهولة في الهضم فيما يتعلق بالشخص الأمي وكلنا نعلم كيف كانت حركة التعليم والثقافة العلمية في هذه الفترة.

أحمد أبو زيد (أستاذ الأنثروبولوجيا في كلية الآداب جامعة الإسكندرية):

أنا سكندري قلبًا وقالبًا، أنا متحمس للإسكندرية ومتحيز لها ومتعصب لها، حينما أنظر إلى التنوير – وأنا أصلاً أستاذ أنثروبولوجيا – لا أنظر إليه فقط من بُعده التاريخي وإنما أنظر لآثاره في الإسكندرية في الوقت الحالي وفي الفترة التي عاصرتها في أثناء حياتي التي امتدت أكثر مما يجب! أنا أرجع على العشرينيات، حيث كان جدي من علماء الأزهر، وفي هذه الفترة كان التنوير قد وصل إلى مشايخ الأزهر، وأنا أعتقد أن هذا هو المحك في حكمنا على

التنوير، وأتساءل كيف وصل التنوير إلى مشايخ الأزهر بحيث مزجوا بين التربية الأزهرية وبين العلم الحديث؟ وفي مكتبته كنت أجد الترجمات التي ظهرت في ذلك الحين، وفي مكتبته التي ورثتها عن والدتي كان هناك عدد من الأسطوانات الثقيلة الإردوازية مسجَّل عليها الموسيقى الكلاسيكية بيانو، وفي مكتبته على جانب كتب الشريعة والفقه كنت أجد ديوان عمر ابن أبي ربيعة وديوان "الفكاهة والائتناس في مجون أبي نواس" وكنت أجد أيضًا كتاب "رجوع الشيخ إلى صباه"، هذا الشيخ الأزهري لم يتورع عن أن يجمع في مكتبته كل هذه الكتابات، وهذا هو عنصر التنوير الذي شهدته أنا وهذا هو المحك الذي يجب أن نحكم عليه في التنوير في الإسكندرية.

وقد أشار الدكتور جابر عصفور إلى وجود رولان بارت في الإسكندرية، في الحقيقة، كان هناك الـــ Maison Française يلعب دورًا كبيرًا في الإسكندرية، واستخدم أكبر الأساتذة على يد طه حسين، وفي الثلاثينيات وأنا تلميذ في المدرسة الثانوية شاهدت جان كوكتو في الإسكندرية في الـــ Maison Française، وشاهدت كذلك أندريه جيد وجورج ديهاميل وغيرهم، وكانت هذه أهم المعالم التي وجدت في الإسكندرية والتي تجاوزت القرن التاسع عشر، من الممكن أن نقول أن هذه هي حصيلة القرن التاسع عشر إلا أنها استمرت إلى القرن العشرين، أيضًا الـــ British Council كان يأتي هنا بمشاهير الكُتَّاب والناقدين وشاهدت أيفور إيفانز أكبر الناقدين البريطانيين في ذلك الحين، إذن ، فقد كانت الإسكندرية تلعب دورًا كبيرًا في حركة التنوير حتى في القرن العشرين.

أنا أذكر فيما قرأت، أن أحد الكتَّاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر – وإن لم تُحنني الذاكرة أنه تيوفيل جوتييه – أراد أن يقوم برحلة من فرنسا إلى مجاهل أفريقيا ووصل إلى الإسكندرية عن طريق البحر ثم انتقل من الإسكندرية، وبعد عشرين كيلومتر فقط من الإسكندرية قال " آه، هنا تبدأ إفريقيا" ! بمعنى أن الإسكندرية كانت ترتبط بالبحر المتوسط وبالحضارة الأوروبية بمعنى أن مجاهل إفريقيا – من وجهة نظره – كانت تبدأ تقريبًا من كفر الدوار ! كل هذه العناصر يجب أن تؤخذ في الاعتبار حينما ندرس حركة التنوير ووصولها إلى الإسكندرية.

كذلك ورد الحديث عن المسرح في الإسكندرية، وأنا طفل شاهدت المسرح في الإسكندرية، والمسرح لم يكن فقط يُقدَّم على المسارح، ولكن المسرح وصل إلى الشارع وإلى الحارة، وكانت هناك فرق مسرحية لا يذكرها ربما سوى الأستاذ مهدي بندق – الذي يشرفنا اليوم – والذي أكبره أنا بأعوام كثيرة إلا أنني أعتقد أنه يذكر مثلي خميس سكر والمسيري ومصطفى حمام، وهؤلاء لم يكونوا يقدمون فقط مسرحيات حديثة، وإنما كان بعضهم يقدم مسرحيات كلاسيكية بعد تحويرها، والجامعة نفسها – وأنا طالب في جامعة الإسكندرية – كانت فرقة التمثيل تمثل "أوديبوس ملكًا"، الآن فرقة التمثيل في كلية الآداب – مع الأسف الشديد – تقدم "حزمني يا بابا" و"العالمة باشا" وما إلى ذلك، وكل ذلك يوصلني إلى السؤال الذي سأله الدكتور جابر عصفور وهو ماذا حدث للإسكندرية؟ حينما أرسل الدكتور طه حسين محمد مندور وزملاءه إلى باريس قال لهم "اذهبوا وتثقفوا"، ولم يطلب منهم أن يذهبوا لإحضار دكتوراه في عامين أو ثلاثة ثم يعودون، حينما جاءت الثورة المباركة، كان كمال الدين حسين

يرسل الطالب في بعثة أربع سنوات ويقول له "لو أخذت الدكتوراه في عامين فسوف أعطيك مكافأة"، وهذا هو الفارق الكبير وهذا هو الذي أدى إلى تدهور الإسكندرية إلى هذا الحد الذي نرجو أن تفيق منه.

حامد حسن السقا (شاعر غنائي):

سبق أن سألت سؤالي عدة مرات، وأنا أرى أننا ندور في دائرة لا نريد أن ننتهي منها، فقد قرأت منذ زمن بعيد أن أقدم حضارة في العالم هي الحضارة المصرية، ثم اكتشفت في كتب التاريخ الموجودة فوق مكتبي أن أقدم حضارة في العالم هي حضارة الصين الشعبية تليها الحضارة العراقية تليها الحضارة المصرية ! فأرجو أن يجيبني أحد بالقول الفصل.

مهدي بندق:

الحق حينما كان الأستاذان المحاضران يتحدثان عن تاريخ الإسكندرية بكل هذا التمجيد وبكل هذا الإطراء، تساءلت بيني وبين نفسي لِمَ كل هذا؟ هل لأنهما مدعوان في الإسكندرية يقومان بكل هذا الإطراء؟ أم لأن مكتبة الإسكندرية تقع في مدينة الإسكندرية فيجب أن تُحَيَّا على هذا؟ في الحقيقية، أنا لا أفهم أبدًا أن تُخصص مدينة أو بقعة من البقاع، حتى لو كان الدكتور جمال حمدان يتحدث عن المواقع العبقرية، فكل مواقع الأرض عبقرية، أما أن نتحدث عن خصوصية جغرافية لمدينة ما فهذا شيء لا أفهمه، أنا أفهم أن نتحدث عن تيار في الإسكندرية وليس تيارًا سكندريًّا في الأدب أو الفن أو الفكر، لا يمكن لمجرد أن يتجمع بعض الناس ويقيمون صحافة أو مدرسة أو جامعة أن نرفع هذا إلى مستوى الخصوصية وكأن مدن العالم لا تفعل هذا. كنت أفكر في أن أنتقد هذا الاتجاه لولا شيء حدث بعده، لأنني في البداية ضد الشوفينية (التعصب والعنصرية) في كل شيء، لكن حدث أن اقشعَّر بدني عندما قيل أن الإسكندرية قد بلغت الحضيض وليس فيها شيء على الإطلاق جيد، وأنا أعجب لهذا لأن في الإسكندرية يوجد بالفعل قوى ثقافية كبيرة أفرادًا وجماعات ولا أنسى أبدًا ولا أحد يستطيع أن يتجاهل وجود الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد أستاذ الأنثروبولوجيا الذي وصل بعلمه إلى العالمية، وأضيف أيضًا أن بالإسكندرية بقعة مضيئة قام بها مجموعة من الفتية آمنوا بالتنوير وضحوا من أجله، واستطاعوا بجهدهم الذي امتد لسنوات طوال أن يجتذبوا من القاهرة نفسها أقلامًا كبيرة وعبقريات مشهودًا لها مثل الدكتور جابر عصفور والدكتور حسن حنفي والأستاذ محمود أمين العالم وغير هؤلاء، بل واستطاعت هذه المجموعة أن تجتذب من خارج مصر من العالم العربي ومن أوروبا ذاتها أقلامًا تكتب في هذه المجلة الصغيرة "تحديات ثقافية" التي تخرج من الإسكندرية لا لشيء إلا لأن هؤلاء قد أدركوا أن شيئًا جديدًا حدث في الإسكندرية، إن هناك صفحات تتعامل مع النص باعتباره ساحة للصراع الأيديولوجي، تتعامل مع كل ما تم إنتاجه من أدب وفن وفكر وفلسفة في عالمنا العربي باعتباره قابلاً للنقد وللمساءلة، ونحن قد تعلمنا على يدي الدكتور جابر عصفور أن نخضع كل شيء للمساءلة، وفعلنا هذا وأنجزنا الكثير وأنتجنا أعمالاً لا يمكن أن يتخيلها أحد. فأنا أتحول ١٨٠ درجة من التخلي عن الدفاع عن

الإسكندرية كموقع إلى الدفاع عنها كمنطقة تستطيع أن تجتذب إليها المفكرين والفلاسفة والنقاد، ولتنقدونا فنحن سنصبح بهذا النقد أقوى وأكبر وأحسن.

ابتسام زغلول:

أتمنى أن تُلغى المركزية وتُعمم اللامركزية وسيؤدي هذا إلى أن تصبح المحافظات ممتازة.

فايزة صقر (أستاذ مساعد علم المصريات بكلية الآداب بدمنهور):

في الحقيقة، إن النقطة التي أثارها الدكتور أحمد زكريا الشّلق فيما يتعلق بالمتحف المصري والمجمع الفرنسي أثارت في قراءاتي حول ما كتبه الأجانب عن الإسكندرية في هذه الفترة، وسأحصر هذه المسألة في كتابين، الكتاب الذي صدر عن الحملة الفرنسية وهو "وصف مصر" في الجزء المتعلق بالإسكندرية، والكتاب الذي كتبه شامبليون "رسائل إلى مسيو داسيه"، ويشير الكتابان أن الإسكندرية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر تحولت إلى مدينة للأجانب لتهريب الآثار، وهذا من نص كلامهم، وقد انتقد شامبليون نفسه عملية تهريب ونقل وسرقة الآثار، وعندما غادر مصر أرسل رسالة إلى المقربين له في الحكومة الفرنسية أن يساعدوه لأنه كان معه عشرة صناديق تحتوي على كميات هائلة من الآثار. وفي كتاب "وصف مصر" به وصف لمدينة الإسكندرية في هذا الوقت يجعلنا نحزن عليها، وما أود قوله أن الإسكندرية في عصر أسرة محمد علي تحولت إلى مدينة صنعت للأجنبي في مصر، بدليل أنه من الأرقام التي ذكرها الدكتور أحمد زكريا الشّلق نستطيع أن نتبيـــن أن عدد أهالي الإسكندرية المصريين لم يكن يتجاوز نسبة ٢٥% من عدد الأجانب الموجودين، ولو تفحصنا الإسكندرية فسنجد قصر رأس التين وقصر المنتزة وأنطونيادس وسكة حديد القاهرة-الإسكندرية والترام، حتى ميدان المنشية الذي أنشأه محمد علي أنشأه للأجانب ولإقامة الأجانب، ويُقال إن أوراقه حتى الآن مِلك للقنصلية الفرنسية! ولو سألنا في محلات شارع صلاح سالم فسنجد أن معظمها كان يمتلكها أجانب وربما ما زال يمتلكها بعضهم حتى الآن.

ما أود قوله أن الإسكندرية أُنشئت وتحركت لخدمة الأجنبي ولم يكن هناك وجود للمواطن المصري بها للأسف، وما أريد التأكيد عليه أن الإسكندرية الآن أجمل كثيرًا.

وديع فريد:

في الحقيقة، عندي تصور قد أصيب وقد أخطئ فيه وهو إنه لو لم تكن الإسكندرية لكانت حتمًا الإسكندرية، فكان لابد أن يكون هذا هو الشكل الذي تكون عليه هذه المدينة، لأنه مثلما تفضل الدكتور جابر عصفور بأن هذه مدينة كوزموبوليتانية، والمدن الساحلية تكون منفتحة والثقافة فيها تكون مختلفة نتيجة الاختلاط، وبناء على ذلك، فليس مستغربًا أن يكون حزب الفتاة مؤسسًا في الإسكندرية، ولا غريب أن تكون مهدًا لعدد من الأنشطة الثقافية، فلو تتبعنا الجزء الأكبر ممن كان لهم الفضل في نشأة الحركة الثقافية والاستنارة بالمدينة، لوجدنا أنها

كانت نتيجة الانفتاح على الآخر، ونحن نقول اليوم أن أهم ما يميز مكتبة الإسكندرية هي أنها نافذة العالم على مصر ونافذة مصر على العالم، بمعنى أنها تقوم بدور الجسر بين مصر والعالم الخارجي.

وحول السؤال الخاص بما جرى للإسكندرية، فأنا أعتقد أن الدكتور جابر عصفور يسأل هذا السؤال لتحفيزنا لأنني أعتقد أنه يدرك أن الإسكندرية هي جزء من مصر أي جزء من مناخ عام استولى على بلادنا وأدى بها إلى هذا التدهور، فهذه رِدَّة ليست مقصورة على الإسكندرية، ويوم ينصلح المناخ العام في بلادنا كله، فستنصلح الإسكندرية وتنصلح القاهرة وستنصلح البلد بأكملها.

محمد الحبشي (دكتور) :

لقد اختطف مني الأستاذ وديع فريد الآن أضواء أسئلتي التي كانت تتمحور حول ما قال! إلا أنني سأحاول أن أتوسع فيما أريد قوله، فأنا أقدر تقديرًا شديدًا للغاية السادة المحاضرين لأنهم كانوا متميزين للغاية وعرضوا في حدود عنوان الندوة أفكارًا شديدة الجودة وتتميز بالدقة، إلا أنني شعرت أن الدكتور جابر عصفور التقى مع ما يقوله الأستاذ مهدي بندق فطرح سؤاله العميق الذي يطرح علينا أزمة ضخمة للغاية حول ما حدث للإسكندرية، وأنا أعتقد – دون أن أحور كلام الدكتور جابر عصفور أو أسيء تفسيره – أنه يريد أن يقول ماذا حدث لمصر؟ وليس فقط للإسكندرية، ويلتقي هذا مع ما طرحه الأستاذ مهدي بندق أن القضية ليست خصوصية جغرافية للإسكندرية، وهذا لا يقلل من شأن كلمات المحاضرَيْن القيِّمة، إلا أنني أعتقد أننا نمس الأزمة مسًّا طفيفًا، فنحن لم نتحدث حتى هذه اللحظة عن أزمة التنوير كما يجب أن يكون الحديث، وأسباب التعثر الحقيقية للتنوير وما آل إليه مشروع النهضة في مصر الآن إلى مشروع تتلقفه وتنهبه وتسويه المشاريع الظلامية، ولذلك أنا أقول أهلاً بكل متحدث عن التنوير، لكنني أقول إن نصف التنوير في العمق، وعلينا أن نبحث عن أسباب تعثره لكي يبزغ ضوء ليس له نهاية.

محمود الشرقاوي (لواء شرطة بالمعاش):

أود لو أرد على ما ذكرته الدكتورة فايزة صقر، ففي الفترة التي كان فيها محمد علي باشا يحكم مصر، كانت الثغور أو الموانئ تابعة للدولة العثمانية مباشرة ولم يكن لمحمد علي باشا سلطان عليها، إذن فالإنشاءات التي قام بها محمد علي باشا في الإسكندرية إذا كان مقصود بها الترحيب بالأجانب فهذا لا يرجع فقط إلى محمد علي باشا فقط ولا يرجع فقط إلى ما ذكره الدكتور أحمد زكريا الشِّلق من أن عام ١٨٤٠ هو عام بداية وصول الأجانب إلى مصر وتزاحمهم على ذلك، لأن قبل هذا التاريخ كان يوجد الكثير من الأجانب في الإسكندرية، وقد أتوا إليها بصفة تجار وذلك في بداية القرن التاسع عشر، وكان لهم أصدقاء في الإسكندرية يستقبلونهم ويتبادلون معهم التجارة والمراسلات أيضًا، وهذه المراسلات تصلح لأن تكون مادة من مواد التغيير.

كذلك، بالنسبة للسؤال حول ما حدث للإسكندرية، فأنا أنضم للدكتور محمد حبشي بأن ما حدث لم يحدث للإسكندرية وحدها وإنما حدث لمصر كلها، فمن خلال الفترة التي حضرتها في خدمتي في الشرطة، آمل أن

نضع أملنا في الشباب، ومما رأيته أثناء عملي وجدت أن الشباب يسمع من جانب واحد وهذا الجانب ظلامي، فأرجو أن نركز على الشباب إذا كنا نريد أن نستمر في الاستنارة والتنوير.

جابر عصفور:

اسمحوا لي قبل أن أعطي التعليق الأخير للمتحدثين الكريمين أن أؤكد على بعض النقاط، النقطة الأولى مسألة الخصوصية، فعندما نتحدث عن الإسكندرية أقول إنه بالتأكيد الإسكندرية لها خصوصية، ليس لأنها مدينة على البحر فحسب، أو لأن كل المدن المفتوحة على البحر مفتوحة فحسب وكوزموبوليتانية، وإنما لأنه من الطبيعي أن تكون لكل مدينة كبيرة داخل أي بلد خصوصية، والوحدة الثقافية لأي أمة هي وحدة تنوع وليس وحدة تكرار، ولهذا في المغرب مثلاً مراكش تختلف عن الرباط التي تختلف بدورها عن الدار البيضاء، وهذا الاختلاف يكون ثقافيًّا وحتى معماريًّا، والإسكندرية تختلف ثقافيًّا ومعماريًّا عن القاهرة وأسيوط وقنا، فهناك خصوصية وهذه الخصوصية تتكرر، وثقافة مصر هي وحدة تنوع بين خصوصيات، ففي مصر يُقال مثلاً أن الدمايطة بخلاء والسكندريين "مية مالحة ووشوش كالحة" !! وغير ذلك من التعليقات المختلفة التي يختص بها كل مكان عن الآخر.

النقطة الثانية التي أريد تأكيدها هو لماذا أطرح سؤالاً عما حدث للإسكندرية، فعلى قدر تَجَـــذُّر الاستنارة تأتي المقاومة وتتحدد، فلا يمكن أن تستسلم مدينة مثل الإسكندرية لها هذه المواصفات بسهولة لموجات الظلام، فيجب أن تكون مقاومتها أكبر وأكثر جذرية من مقاومة مدن أخرى، فالقاهرة مثلاً بطبعها ونتيجة لظروف متعددة تسبق إلى المحافظة، وعندما نقول إن القاهرة تسبق إلى المحافظة فهذا معناه أنها يمكن أن تصبح فريسة لتيارات إظلامية، أما الإسكندرية فلا، فالبحر المفتوح والثقافة المفتوحة والثقافات الأجنبية القائمة، كل ذلك، يجعل الإسكندرية ذات قابلية للمقاومة، والسؤال هو أين هذه المقاومة؟ ولماذا انتهت سريعًا؟

لطيفة سالم:

كل القضايا التي طُرحت كانت مداخلات أكثر منها استفسارات، ردًّا على الدكتور جابر عصفور وبعض الحاضرين الذين يتساءلون عما جرى في الإسكندرية بل ما جرى في مصر بأكملها، ويحتاج ذلك منا إلى محاضرات كثيرة والموضوع ليس حديثًا وإنما له جذور ورواسب وظل الكوب يمتلئ وندعو الله ألا يفيض !

بالنسبة للدكتور حسن السعدي الذي ذكر أنه قبل قاسم أمين كان هناك عالم أزهري متنور أو تيار تنويري بالأزهر، وهذه حقيقة، وإذا كنا عادة ما نبدأ الحديث عن التنوير في مصر الحديثة بعصر محمد علي والاحتفالات الآن قائمة بمناسبة مرور مائتي عام على حكمه، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت من خلال الوثائق أن هناك تنويرًا فيما قبل محمد علي وبالذات في القرن الثامن عشر وقبل حملة بونابرت، وهناك رسائل علمية حديثة عن علماء الأزهر، وأنه كانت هناك مؤلفات، ليس فقط في العلوم الفقهية والحديث وغيرها، وإنما اختصت بالبيولوجي والكيمياء وغيرها، مما يدل على أن هناك نهضة تنويرية في الأزهر. ولا ننسى رفاعة الطهطاوي الأزهري الذي خرج ليؤم بعثة علمية أرسلها محمد علي، لكن السؤال هو كيف استطاع هذا الرجل – الذي مازال البعض منا يضع

صورته في حجرة مكتبه – أن يصبح رائدًا كبيرًا من رواد التنوير، وقد خرج معه في البعثة نفسها مشايخ آخرون اكتفوا فقط بالصلاة والدعاء وأداء الواجبات الدينية، وأنا لا أنفي أهمية ذلك فهذه مسألة أساسية ومطلوبة، إلا أن عين رفاعة الطهطاوي كانت كالكاميرا التي ساعدته على التقاط كل شيء، وخدمته الظروف لأن في أثناء وجوده في فرنسا قامت ثورة ١٨٣٠، وبالتالي استطاع أن يفهم كنهها وأبعاد أنظمة الحكم والدستور وغير ذلك.

بالنسبة للسؤال حول القاهرة وتجميع التيارات، فأنا أقول إنها مازالت تقوم بهذا الدور، وبالنسبة لنشاط جامعة الإسكندرية – وأنا خريجة جامعة الإسكندرية وهي عزيزة عليّ – فقد تحرك النشاط قليلاً الآن عن طريق مكتبة الإسكندرية، وقبل ذلك كان النشاط محدودًا للغاية، بمعنى أنه لم يكن هناك حافز لوجود نشاط ثقافي حقيقي، وذلك لأننا تعودنا أن يعمل كل منَّا بمفرده، فلا يوجد عمل جماعي، وقد دفع ذلك الكثير من مثقفي الإسكندرية إلى أن يهجروها إلى القاهرة، والصحيح أننا نسمع الآن عن أدباء الأقاليم وأنشطتهم، إلا أن ذلك لا يحتل نفس الأهمية للأنشطة مثلما يحدث في "سرة الثقافة" أو القاهرة. فالمثقف الذي يرغب أن يظهر عمله يلجأ إلى القاهرة.

بالنسبة لأهمية الأغاني وتأثير سيد درويش وبيرم التونسي، أقول إن الفترة التي حددتها وتحدثت عنها لم يكن واردًا فيها الحديث عن سيد درويش، إلا أن الأغنية وبالذات الأغنية الشعبية هي الأداة الموصلة الجيدة لعقول عامة الناس، وكلنا نتأثر بها بصرف النظر عن المستوى الاجتماعي الذي ننتمي إليه، ولا شك أن التأثير يتفاوت، وأنا شخصيًّا تشكل عندي أغاني عبد الحليم حافظ قيمة كبيرة للغاية.

بالنسبة لتعليق أستاذنا الدكتور أحمد أبو زيد أقول إنني لم أكن أعلم قبل ذلك أن جده كان أحد علماء الأزهر، وربما أنه هو الذي زرع فيه هذه الثقافة وهذا التنوير، فكونه يمتلك مكتبة بهذه المواصفات تحتوي على موسيقى كلاسيكية وغير ذلك فهذا شيء عظيم، ويؤكد ما نقوله أنه حتى الأزهر منذ عصر جمال الدين الأفغاني الذي قام بعمل تجديد كبير للغاية فيه، إلا أنه أُخرج منه و لم يستطع أن يُكمل لأن التيار المحافظ كان قد سيطر في هذا الوقت.

ردًّا على السؤال الخاص بقِدم الحضارات، فأقدمهم بالطبع هي الحضارة المصرية، وقد سافرت إلى الخارج واحتككت بالعراقيين وعرفت أن لديهم غيرة شديدة من المصريين ودائمًا ما كانوا يقولون أن حضارتهم أقدم من حضارتنا، وهذا كلام غير موثوق به.

ردًّا على الأستاذ مهدي بندق تحدث عن خصوصية جغرافية المدينة، أنا مع رأي الدكتور جابر عصفور، فكل مدينة لها خصوصية ليس فقط في مصر، وإنما في خارجها أيضا، بل إن الأحياء داخل المدن لها خصوصية، فحي كرموز في الإسكندرية يختلف بالتأكيد عن حي زيزينيا مثلاً وهكذا.

ردًّا على الدكتور فايزة صقر، وبخصوص مسألة تهريب الآثار أقول إننا لا يجب أن نفكر بعقلية اليوم حينما نتحدث عن هذا الموضوع، ففي عصر محمد علي وما بعده والهدايا التي كان يهديها الحكام للقناصل الأجانب، فالقنصل الأمريكي فارمان مثلاً حصل على مسلة كهدية بجانب هدايا أخرى، فلم يكن هناك وعي بأهمية هذه الآثار، ومن الممكن أنهم كانوا يظنون أن عرض هذه الآثار في الخارج يجلب لمصر رواجًا سياحيًّا – مثلما نعرض آثارنا الآن في بلاد العالم المختلفة ولكنها تعود إلينا مرة أخرى – إلا أن ما أود التأكيد عليه أنه لم يكن هناك وعي كامل بأهمية الآثار، إنما كان هناك جزء من وعي بدليل أن سعيد باشا بدأ بذور إقامة متحف وبدأ يبحث عن العلماء الفرنسيين لرعاية ذلك.

بالنسبة لأحياء الإسكندرية وأن الإسكندرية كانت أجنبية، أقول إنه بالفعل بالنسبة لميدان المنشية مثلاً كان يسمى ميدان القناصل، وقد جاء الأجانب مصر منذ فترة طويلة قبل حتى الامتيازات الأجنبية، فقد بدأ مجيئهم إلى مصر منذ أيام الفاطميين – ويتضح هذا لمن يدرس التاريخ الإسلامي – فقد أراد الفاطميون أن يظهروا سماحة الإسلام، وهذا هو النهج الذي انتهجته الدولة العثمانية بعد ذلك، وتظهر سماحة الإسلام حينما نعطي الأمان للأجانب ونفتح لهم الباب ليأتوا في قلب بلادنا ويتاجروا في بضائعهم مع تقليل الرسوم الجمركية لهم ونوفر لهم الأمن والحماية ونخلق سياجًا لحمايتهم مثل الفنادق والخانات وهكذا، ولكن، محمد علي كان يحد من حجم الأجانب، فلم يكن يعطيهم أي فرصة، والمشروعات التي كانوا يقدمونها كان يمنع إقامتها مثل مشروع قناة السويس ومشروع السكة الحديد وكان دومًا يقول إنه لا يريد بوسفورًا آخر في مصر حتى لا تزداد سلطة الأجانب. وبعد وفاة محمد علي، وتحديدًا في عهد عباس نذكر أنه كان يكره الأجانب للغاية، وحتى الأجانب الذين كانوا موجودين منذ أيام محمد علي وكان يسمح لهم إلى حد ما في حدود معينة بممارسة نشاط اقتصادي، وقد قام عباس بطردهم، إلا أن القنصل البريطاني استطاع أن يعرف مفتاح شخصية عباس ويحصل منه على امتياز خط السكة الحديد. وبعد وفاة عباس جاء سعيد، وسعيد كان رجلاً منفتحًا تمامًا، وهو أبو سياسة الانفتاح، وبعد إعلان وفاة عباس في جزر البحر المتوسط، بدأ الأجانب بعد أربع وعشرين ساعة فقط يتوافدون بكثرة على مصر، وكان سعيد رجلاً كريمًا وكانت له إيجابيات كبيرة، إلا أنه سمح للأجانب بالتواجد والسيطرة وخصوصًا مع وجود الامتيازات الأجنبية، والامتيازات الأجنبية لو كانت طُبقت ببنودها وبحذافيرها لم تكن هناك أية مشكلة، إلا أن الأجانب توسعوا وطمعوا في هذه الامتيازات، وهناك مقولة بمناسبة ذكر الدكتور أحمد زكريا الشّلق لشخصية زيزينيا، فقد كان مسيو زيزينيا جالسًا ذات يوم مع سعيد باشا، حيث نادى سعيد على خادمه وقال له "أغلق الباب لأن مسيو زيزينيا لو أصابه البرد لطالبني بتعويض!" لأنه كان من ضمن الامتيازات الأجنبية أنه في حالة نظر أية قضية لابد أن تُنظر في المحكمة القنصلية وهذا موضوع كبير لا مجال للحديث فيه الآن. وأود أن أوضح أنه على قدر ما كان للأجانب من سلبيات، إلا أنهم حدَّثوا الإسكندرية، ولا أقول إنهم فعلوا ذلك بالإباحية وإنما بالفكر وجعلوا للإسكندرية مكانة متميزة.

بخصوص السؤال عن أزمة التنوير وأننا لم نمس الحالة الحاضرة أقول إن محاضرتنا في إطار تاريخي، وأزمة التنوير اليوم أعتقد أن المايسترو فيها هو الدكتور جابر عصفور.

أحمد زكريا الشّلق:

ردًّا على الدكتور حسن السعدي وحديثه على البنية التحتية للاستنارة وأصحاب الفكر هم أصحاب البنية التحتية، أتساءل هل المؤسسات والهيئات هي التي تفرز فكرًا مستنيرًا أو العكس؟ أعتقد أن المسألة تحتوي على الجانبين، ومحمد علي لم يكن عنده تخطيط مستنير ولا مفكرون نصحوه بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا، إلا أنه أنجز إنجازات كثيرة، بل ومن ضمن إنجازاته خلْق مثقفين ومفكرين أضافوا بفكرهم للمرحلة التالية، فهناك نوع من الديالكتيك بين الإنجاز والفكر، فالفكر يؤدي إلى إنجاز والإنجاز يؤدي إلى فكر. والقضية الأخرى عن سيد درويش وبيرم التونسي تحتاج إلى محاضرة أخرى، وهو موضوع متسع وجميل.

ردًّا على الدكتورة فايزة صقر، أقول أولاً إنها أضافت معلومات إلى ما قلته، فقد تحدثت عن فترة ما بعد الأربعينيات وأضافت عن فترة محمد علي، وفيما يخص مسألة الآثار، فأنا أعتقد أن مسألة الاهتمام بعلم الآثار وعلم المصريات وإنشاء المتاحف في حد ذاته يُعد إيقافًا لعملية نهب الآثار، وقد ثبت علميًّا أن ما أهدي من الآثار أكثر مما سُرق، فمعظم النسخ الأصلية للآثار التي خرجت من مصر أخرجت في صورة هدايا من الحكام ويمكن التحقق من ذلك من كتابات شامبليون وغيره، ولو قرأنا كتاب مالرو عن "تاريخ النهب الاستعماري" فسنجده يتحدث كله عن نهب الآثار، وكذلك كتاب بيتر فرانس عن نهب مصر أو استعمار مصر، والكتاب الأخير لدونالد ريد وهو الكتاب المعنون "علم الآثار والهوية المصرية" والذي ترجم أخيرًا في المشروع القومي للترجمة في المجلس الأعلى للثقافة. وعندما بدأوا في تكوين المتحف في عام ١٨٩٢ كانوا يحاولون استرجاع بعض الآثار من الخارج، حتى أن بعض الأشخاص اليونانيين أعادوا بعض الآثار التي كانوا قد أخذوها قائلين "إن أصحاب هذه الآثار أولى بها منَّا"! وهناك وثائق تثبت ذلك.

بالنسبة للدكتور محمد الحبشي، أعتقد أنه يود لو نعالج أزمة التنوير في مصر، وهذه المسألة تحتاج إلى مؤتمر وإلى ندوات كثيرة، وحسبنا في هذه المحاضرة المتعلقة بالموضوعات التاريخية أن نضع أيدينا على أسباب نهضتنا وما أنجزناه وما لم ننجزه، وهذا في حد ذاته مقدمة لكي نفهم أكثر ولكي نحسن تحليل الواقع الذي نعاني منه الآن، وربما لو استطاعت مكتبة الإسكندرية أن تقيم محاضرات أخرى حول قضية التنوير ولماذا تعثر؟ فسوف تجيب على المطلوب.

أود أن أضيف أن الإسكندرية كمجتمع كوزموبوليتاني ومجتمع منفتح، والبحر هنا عامل اتصال وليس عامل انقطاع، ونحن نربط نهضتنا شئنا أم أبينا بانفتاحنا على الآخر، والبعض يؤرخ لبداية نهضتنا بالحملة الفرنسية

مادحًا فيما أنجزه الفرنسيون والبعض الآخر يؤكد أن البداية كانت مع محمد علي، وأنا أقول إنه أيًّا ما كانت البدايات فهي دومًا تتصل بذلك الآخر، فقد كان الفرنسيون بالنسبة لنا آخر، وجاءوا هنا في حملة عسكرية واصطدمنا بهم عسكريًّا. كما أقام محمد علي جسورًا للتعامل مع الآخر فأرسل بعثات تعليمية، استقدم خبراء وفنيين ومستشارين، وقام بعمل حركة ترجمة واسعة نشطة، كل ذلك تعامل مع الآخر، فارتباط نهضتنا بالتعامل مع الآخر هو الذي حدث في الإسكندرية، فنهضة الإسكندرية جاءت أساسًا من هذا الانفتاح على الآخر، من هذا التواصل الذي تم عن طريق البحر، وكان كل ذلك في النهاية يصب في نهضة الوطن ككل، لا فرق في هذه اللحظة بين الإسكندرية والقاهرة، ونحن نركز على جانب الإسكندرية لأننا معنيون الآن بتسليط الضوء عليها فقط في هذه الندوة.

جابر عصفور:

في الختام أقول إن الإسكندرية كانت وستظل موضوعًا جميلاً وشيقًا لن نمل أبدًا من الحديث عنه.

المراجع التي استخدمها الدكتور أحمد زكريا الشّلق

****

- إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، مصر النهضة (عدد ٥١) الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٥.
- جامعة الإسكندرية : جامعة الإسكندرية في خمسين عاماً ١٩٤٢ – ١٩٩٢.
- دونالد مالكولم ريد: فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية، ترجمة رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ٢٠٠٥.
- رفعت السعيد: تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥، ط (٢) دار الثقافة بالقاهرة ١٩٧٥.
- عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الأول ط (٤) دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧.
- علي شلش: مصر الفتاة، جمعية سياسية ووثيقة إصلاحية، مصر النهضة الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩١.
- علي شلش: قضايا عربية في الثقافة والتاريخ، مركز ابن خلدون، دار سعاد الصباح بالقاهرة والكويت ١٩٩٣.
- كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠١.
- محمد حسين هيكل: مذكرات في السياسة المصرية، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٣.
- نجيب محفوظ: ميرامار، دار مصر للطباعة، القاهرة د. ت.

المراجع التي استخدمتها الدكتورة لطيفة سالم

****

- إبراهيم عبده، تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضة الفكرية والاجتماعية، الطبعة الثانية، مطبعة المتوكل، القاهرة، ١٩٤٥.
- عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية، الجزء الرابع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٦ .
- قسطاكي إلياس الحلبي، تاريخ تكوين الصحف المصرية، مطبعة التقدُّم، الإسكندرية، ١٩٢٧.
- لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، الجذور والأحداث، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٤.
- نعمات أحمد عثمان، تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ٧٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.